بناء الذوق البلاغي

بقلم الدكتـــور

حمدي علي أبوالمحاسن البهوي

مدرس البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بالمنصورة

جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ وبعد :

كثيرون أولئك الذين ينشدون امتلاك ذوائق بلاغية، يتعمقون من خلالها النصوص الأدبية، ويسبرون أغوارها، ويتسللون إلى مطاويها، ولكن بعضهم يحال بينهم وبين ما يشتهون، فلا يدركون غايتهم، ولا يصلون إلى بغيتهم؛ لأن أول مدارج بناء الذائقة البلاغية هبة ربانية، وعطية إلهية، لم يحظ بنوالها إلا قليلون، ولله در الإمام عبد القاهر، يقول: " والبلاء والداء العياء أن هذا الإحساس قليلٌ في الناس..."(١) ويقول أبو هلال : " وأول آلات البلاغة جودة القريحة، وطلاقة اللسان . وذلك من فعل الله – تعالى – لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه، واجتلابه لها..."(٢) .

وموهبة الذوق البلاغي لا تكفي وحدها لإدراك بلاغة التعابير، فاتكاء المتذوق على موهبته فحسب ينتج حكمًا انطباعيًا تأثريًا يفتقر إلى الموضوعية والتعليل لأحكامه . ومن ثم فصاحب الموهبة يحتاج إلى صقلها بمعرفة علم البلاغة، باعتباره معيارًا مهمًا، كما يحتاج البلاغي المتذوق للعلوم الإنسانية، والتي يأتي في الصدارة منها علم النفس؛ لأن النص الأدبي ميدان عمل البلاغي، والنص مرآة تعكس أصداء النفس الإنسانية، وما تأثرت به من ظروف محيطة، كذلك تصقل الموهبة بمعايشة النصوص العالية في بلاغتها،

(١) دلائل الإعجاز، للإمام / عبدالقاهر الجرجاني، تح / محمود محمد شاكر، ص ٥٤٩، مطبعة المدني . القاهرة، دار المدني . جدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ.

(٢) الصناعتين، للعسكري، تح / علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٢٠، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤١٩ هـ.

فضلًا عن الدربة وطول الممارسة والإدمان. وللوقوف على الملاحظات النقدية والموازنات دور لا ينكر في صقل الموهبة .

هذا، وقد جاءت دراستي هذه؛ للبحث عن وسائل بناء الذوق البلاغي، و عنوانها : [بناء الذوق البلاغي].

وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع أمور، منها :

- أهمية التذوق البلاغي في إدراك الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وإدراك بلاغة الحديث الشريف، ونتاج الأدباء .
- أصحاب الذوق البلاغي قليلون– كما ذكر الإمام عبد القاهر، وكما سيتضح داخل البحث – ومن ثم ينشد البحث تسليط الضوء على وسائل بناء الذوق؛ لتجليتها أمام شداة بناء الذوق البلاغي .
- لم تنل دراسة بناء الذوق البلاغي ما تستحقه في التأليف البلاغي .

واقتضت طبيعة الدراسة أن تخرج في مقدمة، وتمهيد، وسبعة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وبيان ذلك ما يلي :

المقدمة : وتضم أسباب اختياري للموضوع، والمنهج المتبع في دراسته، وكيفية تقسيمه .

ثم يأتي التمهيد، وعنوانه : [الذوق البلاغي المفهوم والقيمة].

ثم تأتي المباحث التي تتناول وسائل بناء الذوق البلاغي على النحو التالي :

المبحث الأول : الموهبـة .

المبحث الثاني: إخلاء الذهن وتفريغ النفس .

المبحث الثالث : طول مدارسة علوم البلاغة .

المبحث الرابع : معايشة النصوص عالية البلاغة.

المبحث الخامس : الإدمان والدربة .

المبحث السادس: الوقوف على الملاحظات النقدية والموازنات .

المبحث السابع : الاهتمام بدراسة العلوم الإنسانية .

ثم الخاتمة، وفيها أهم نتائج الدراسة .

أما عن المنهج فقد سارت هذه الدراسة على منوال المنهج الوصفي التحليلي .

هذا، وأسأل الله– تعالى– أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقني التوفيق والسداد...

دكتـور

حمدي علي أبوالمحاسن البهوي

تمهيـد :

[الذوق البلاغي ـ المفهوم والقيمة]

الـذوق لغـة :

جاء في تهذيب اللغة : «الذوق : مصدر ذَاقَ يذوقُ ذوقًا ومذاقًا وذواقًا، فالذَّواق والمَذاق يكونان مصدرين، ويكونان طعمًا، كما تقول ذَواقهُ ومذاقُه طيِّب ... ويُقال : ذُقت فلانًا، أي : خَبَرتُه ... »[١].

وجاء في المصباح المنير : «الذَّوْق : إدراك طعم الشيء بواسطة الرطوبة المُنْبَثَّة بالعصب المفروش على عَضَل اللسان، يُقال : ذُقتُ الطعام أذوقه ذَوْقًا وذَوَقانًا وذَوَاقًا ومَذَاقًا : إذا عرفته...ومنه يقال : ذاق فلان البأس : إذا عرفه بنزوله به . وذاق الرجل عُسيلة المرأة، وذاقت عُسيلته: إذا حصل لهما حلاوة الخِلاط، ولذة المباشرة بالإيلاج»[٢] .

أما التعريفات فجاء فيه : «والذوق في معرفة الله : عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره»[٣] .

وجاء في تاج العروس : «وهو حسن الذوق للشعر : مطبوع عليه»[٤]،

---

(١) تهذيب اللغة، للأزهري، تح/ محمد عوض مرعب، جـ٩، ص ٢٠٣، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ط الأولى، ٢٠٠١ م.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي، جـ ١، ص ٢١١، المكتبة العلمية – بيروت، بدون تاريخ.

(٣) التعريفات، للجرجاني، ص١٠٧، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى، ١٩٨٣م .

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، ج٢٥، ص٣٢٨، دار الهداية، بدون تاريخ .

وفي نجعة الرائد: «ويقال : تذوَّقتُ الشيء: إذا ذقته مرةً بعد مرة »[١].

بعد هذه الرحلة في كتب اللغة يمكن القول بأن : لفظة : [الذوق] يدور معناها حول إدراك طعم الأطعمة والأشربة، ويتسع المعنى بالتجوز ليشمل ما يدرك بغير اللسان كالبأس والعُسيلة.

وكما يكون الذوق في المحسوسات يكون – كذلك – في غيرها كتذوق معرفة الله – تعالى – وتذوق الشعر. والذوق طبع وفطرة. ولفظة: التذوق تعطي معنى التكرار مرة بعد مرة .

هذا، وقد عُبر عن الذوق في كتب البلاغة والنقد بالطبع والملكة والقريحة.

أما عن التعبير عن الذوق بالطبع، فهو مجاز، جاء في أساس البلاغة: «ومن المجاز : ذقتُ ما عنده، وتقول ذقتُ الناس ... ووزنتهم وكلتهم ، وهو حسن الذوق للشعر إذا كان مطبوعًا عليه »[٢]،وقد جاء الذوق عند عبد القاهر بلفظ الطبع، تأمل قوله : « المزيَّة لو كانت تَجبُ من أجْلِ اللغةِ والعِلْم بأوضاعها وما أرادَهُ الواضعُ فيها، لكانَ ينبغي أنْ لا تَجِبَ إلا بِمْثل الفرْقِ بين "الفاء" و "ثم" و "إنْ" و "إذا" وما أشبَهَ ذلك، مما يعبِّرُ عنه وضعٌ لغوي، فكانت لا تَجِبُ بالفصْل وتَرْك العْطفِ، وبالحذْفِ والتكرارِ، والتقديمِ والتأخيرِ، وسائرِ ما هو هيئةٌ يُحْدِثُها لك التأليفُ، ويَقْتضيها الغَرضُ الذي تَؤُم، والمعنى الذي تَقْصِد، وكانَ ينبغي أن لا تَجب المزيةُ بما يَبْتدِئه الشاعرُ

(١) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، لليازجي، ج١، ص ٣٥، مطبعة المعارف – مصر، ١٩٠٥م .

(٢) أساس البلاغة، للزمخشري، تح/ محمد باسل، ج١، ص ٣٢٠، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى، ١٩٩٨م .

والخطيبُ في كلامِهِ منِ استعارةِ اللفظ لشيءٍ لم يُسْتَعَر له، وأنْ لا تكونَ الفضيلةُ إلاَّ في استعارةٍ قد تُعورِفَتْ في كلامِ العربِ. وكفى بذلك جَهْلًا .

ولم يكنْ هذا الاشتباهُ وهذا الغَلطُ إلاَّ لأنَّه ليس في جُملة الخفايا والمُشْكِلات أغرب مَذْهبًا في الغموض، ولا أَعْجَب شأنًا، من هذه التي نحنُ بصَدَدِها، ولا أَكثرُ تفلُّتًا منَ الفَهْم وانْسلالًا منها، وإنَّ الذي قاله العلماءُ والبلغاءُ في صفتِها والإخبارِ عنها، رموزٌ لا يَفْهمُها إلاَّ مَنْ هُوَ في مثْلِ حالِهِمْ مِنْ لُطْفِ الطَّبْع، ومَنْ هو مُهَيَّأٌ لِفَهْم تلكَ الإشاراتِ، حتى كأنَّ تلكَ الطباعَ اللطيفةَ وتلكَ القرائحَ والأذهانَ، قد تواضعَتْ فيما بينها على ما سَبيلُه سبيلُ الترجمةِ يتَواطأُ عليها قومٌ فلا تَعْدُوهم، ولا يعرفها من ليس منهم »[(١)]، كما عَبَّر عن الذوق بلفظ الطبع عند حديثه عن أن الآفة العظمى في ترك البحث عن العلة التي توجب المزية في الكلام[(٢)] .

هذا، وقد عبر حازم القرطاجني عن الذوق بالطبع وعرفه بقوله : «النظم صناعة آلتها الطبع، والطبع هو استكمال للنفس في فهم أسرار الكلام، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحى به نحوها، فإذا أحاطت بذلك علمًا قويت على صوغ الكلام بحسبه عملًا، وكان النفوذ في مقاصد النظم وأغراضه، وحسن التصرف في مذاهبه وأنحائه إنما يكونان بقوىً فكرية، واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء »[(٣)]، فحازم يؤثر تعبير الطبع، وكأني به يقول: إن الذوق طبع وفطرة، والذوق

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٥٠ .
(٢) ينظر: السابق، ص ٢٩١ .
(٣) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، تح/ محمد الحبيب الخوجة، ص١٩٩، دار الغرب الإسلامي . بيروت، ط الثالثة، ١٩٨٦م.

ثمرة الطبع.

وفي ذلك ما يؤكد على أهمية الطبع في الذوق، فالذوق طبع تصقله وسائل أخرى، إنما الشأن في أصل الموهبة التي هي وَهْب يُنمَّى بالكسب بعد ذلك.

أما عن التعبير عن الذوق بالملكة فنراه عند ابن خلدون يقول: «واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ وتستقر اسم الذوق، الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان. والذوق إنما هو موضوع لإدراك الطعوم، لكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو محل لإدراك الطعوم استعير لها اسمه، وأيضًا فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق»[١] .

فابن خلدون يدرك العلاقة بين الذوق والملكة فيجعل الأولى مجازًا في الثانية، واستطاع بتحليله الدقيق أن يؤكد وجهته في ذلك.

أما عن التعبير عن الذوق بالقريحة فجاء في الصناعتين يقول أبوهلال: «وأول آلات البلاغة جودة القريحة، وطلاقة اللسان . وذلك من فعل الله – تعالى – لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه، واجتلابه لها»[٢]، فأبو هلال يَعُد القريحة أول آلات البلاغة، ويؤكد أن القريحة هبة من الله – تعالى – فالذوق موهبة قبل كل شيء، وهذا أمر يؤكده الواقع، فمن حرم الموهبة لا يستطيع تحصيلها مهما حاول ذلك .

(١) المقدمة، لابن خلدون، تح / خليل شحادة، ص ٧٧٦، دار الفكر . بيروت، ط الثانية، ٩٨٨ م.
(٢) الصناعتين، ص ٢٠.

وبهذا يتأكد لدينا أن لفظة :[الذوق] عبر البلاغيون والنقاد عنها بأكثر من لفظ من ذلك –كما أسلفت – الطبع والملكة والقريحة .

مفهوم الذوق البلاغي :

يقول ابن خلدون : «اعلم أن لفظة : [الذوق] يتداولها المعتنون بفنون البيان، ومعناها : حصول ملكة البلاغة للسان، وقد مر تفسير البلاغة، وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك، فالمتكلم بلسان العرب، والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب، وأنحاء مخاطباتهم، وينظم الكلام على ذلك الوجه، وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب، وإن سمع تركيبًا غير جار على ذلك المنحى مَجَّه، ونبا عنه سمعه بأدنى فكر، بل وبغير فكر، إلا بما استفاد من حصول هذه الملكة، فإن الملكة إذا استقرت ورسخت في محالّها ظهرت كأنها طبيعة وجبلةٌ لذلك المحل »(١).

فابن خلدون يوضح مفهوم الذوق عند أهل البيان، ويريد به ملكة في الإبداع و النقد البلاغي، والواقع أن : «دراسة الشعر وتفقده وتذوقه، ومعرفة فنونه وطرائق الشعراء، كل ذلك أصل وأساس في الدراسة البلاغية، لا يقوم شيء منها إلا عليه»(٢).

فعلى الرغم من أن المصطلح السيار في الساحة النقدية هو الذوق الأدبي إلا أن التذوق أصل وأساس في الدراسة البلاغية.

---

(١) المقدمة، ص٧٧٥ .

(٢) خصائص التراكيب . دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبو موسى، ص ٩، مكتبة وهبة . القاهرة، ط السابعة، بدون تاريخ .

ويقول ابن عاشور : «والذوق كيفية للنفس بها تُدرك الخواص، والمزايا التي للكلام البليغ»[١] .

وبعد هذه الرحلة في أخلاد أصحاب الفكر النقدي والبلاغي يمكنني القول بأن الذوق البلاغي معناه : موهبة يُؤتاها قليل من الناس، تصير ملكة بإخلاء الذهن، وانشغاله بصقل الموهبة بما يبني الذوق البلاغي .

ولكن من أسف لم تسلط أضواء البحث والدراسة على الذوق البلاغي على الرغم من أهميته؛ لكونه أول آلات البلاغة، كما قال أبو هلال العسكري [٢].

مفهوم الذوق الأدبي :

يقول الأستاذ / أحمد الشايب : «الذوق الأدبي هو القوة التي يقدر بها الأدب، ومعنى قدر الأدب بيان قيمة نصوصه ودرجتها ... فكأن الذوق هو وسيلة النقد الأدبي وأداته، وهذا صحيح إذا كنا نفهم الذوق على أنه خلاصة العوامل الفطرية والمكتسبة التي يقوم عليها نقد الآداب»[٣]، فقيد الأدب في الذوق جعل المفهوم يتخذ دلالة واسعة النطاق .كما نرى .

ويقول الأستاذ/ المنفلوطي : «الذوق الأدبي الذي يستفيده المتأدب من دراسة الأدب ومزاولته هو الميزان الذي يزن به ما يحاول فهمه من عبارات

---

(١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، للطاهر بن عاشور، ج١ ص ٢١ . الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م .

(٢) ينظر : الصناعتين، ص ٢٠ .

(٣) أصول النقد الأدبي، أ / أحمد الشايب، ص ١٢٠، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة، ط العاشرة، ١٩٩٤ م .

العلوم وأساليبها »[١] فالمنفلوطي يشير إلى أهمية دراسة الأدب في تنمية الذوق، كما يوسع دائرة أهمية الذوق الأدبي : إذ يراه ميزانًا لفهم عبارات العلوم وأساليبها، فالذوق الأدبي لا يقف دوره، وميدان عمله عند حد الأعمال الأدبية، وإنما يتعدى ذلك؛ ليكون عينًا يزن بها صاحبه عبارات العلوم.

– العلاقة بين الذوق الأدبي والذوق البلاغي :

مما سبق يمكن القول : بأن خيوطًا دقيقة تفصل بين دلالتي المصطلحين، فالأدب رحم تصل بينهما، ووشيجة تربطهما، فالذوقان الأدبي والبلاغي يسهم الأدب العالي في بنائهما، كما أن الذوقين ميدانهما التطبيقي الأدب .

والذي أراه : أن العلاقة بين الذوقين علاقة عموم وخصوص، فالذوق البلاغي أخص؛ لأن البلاغة التي هي قيد في مصطلح: [الذوق البلاغي] تشريع للأدب تضع قواعده، وتحدد أصوله، وترسم طريقه ومنهجه [٢]، والناقد الأدبي الذي من أهم آلاته الذوق الأدبي يحتاج إلى دراسة البلاغة؛ إذ هي دستور يقيس عليه، كما يحتاج إلى ذوق بلاغي يستضيء بسناه عند التطبيق .

(١) النظرات، للمنفلوطي، ج١، ص ١٠، دار الآفاق الجديدة، ط الأولى، ١٩٨٢م .
(٢) ينظر: البيان العربي، د/ بدوي طبانه، ص ٤٣٧، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة، ط السادسة ١٩٧٦ م .

– العلاقة بين الدلالة المعجمية، والدلالة الاصطلاحية للذوق:

الدلالة المعجمية للذوق في أصلها تدور حول تذوق المحسوسات باللسان من مطعومات ومشروبات، وباللسان يتميز الحلو من المر، بل تتبين درجات حلاوة الحلو، ودرجات مرارة المر، وبالتكرار تتكون في اللسان خصيصة يتمكن بها من الحكم الدقيق على ما يتذوقه .

وبالتجوز اتسعت دلالة الذوق – كما ذكر الجاحظ تحت عنوان مجاز الذوق [١] – فدخل في دائرة دلالتها ذوق بلاغة الأساليب بملكة يتمتع بها قليل من الناس، كما قال عبد القاهر: « هذا الإحساس قليل في الناس ... وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له، كذلك لا تُفهِم هذا الشأن من لم يُؤت الآلة التي بها يَفهم، إلا أنه إنما يكون البلاء إذا ظن العادم لها أنه أوتيها، وأنه ممن يكمل للحكم، ويصح منه القضاء ...»[٢].

ففي استعمال الذوق في ملكة تدرك بها بلاغة الأساليب استعارة، وعلاقة الاستعارة تدل على قوة الصلة بين المعنى الوضعي للفظة، والمعنى الاستعاري، وقد فطن لذلك ابن الأثير، يقول : «الاستعارة المجازية مأخوذة من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي: أن يستعير بعض الناس من بعض شيئًا، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة مما يقتضي استعارة أحدهما من الآخر شيئًا، وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة

(١) الحيوان، للجاحظ، ج ٥، ص١٥، دار الكتب العلمية – بيروت، ط الثانية، ١٤٢٤ هـ .
(٢) دلائل الإعجاز، ص ٥٤٩ .

بوجه من الوجوه، فلا يستعير أحدهما من الآخر شيئًا؛ إذ لا يعرفه حتى يستعير منه، وهذا الحكم جارٍ في استعارة الألفاظ بعضها من بعض؛ فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر كمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر »[١] .

إن لفظة الذوق انتقلت على بساط الاستعارة إلى دلالة جديدة أضيفت إلى الدلالة المعجمية الوضعية، فعن طريق التجوز «دخلت دائرة الفنون الجميلة لتدل على هذه الملكة المكتسبة أو الموهوبة التي تدرك ما في الآثار الفنية من كمال وجمال أو نقص ودمامة»[٢].

قيمة الذوق البلاغي في إدراك الإعجاز :

للذوق البلاغي أهميته في التحليل البلاغي، وإدراك بلاغة الأساليب، ويأتي في الصدراة من ذلك إدراك إعجاز بلاغة القرآن الكريم، فدارس البلاغة القرآنية إن فقد الذوق البلاغي، أتت دراسته عقيمة، يمر على الصور والأخيلة والمفردات والتراكيب فيحرم لذائذها كمريض أنسته مرارة المرض حلاوة ما يمر على لسانه، أو كمن فقد بصره أو شيئًا منه يقلب اللآلئ، يسمع أصوات حركتها تحت يديه ولا يبصر لمعانها وبريقها، وطامة الطوام، وفاتكة الخطوب «إذا ظن العادم لها أنه أوتيها، وأنه ممن يكمل للحكم، ويصح منه القضاء، فجعل يقول القول لو علم عيبه لاستحى منه، فأما الذي يحس بالنقص من نفسه، ويعلم أنه قد عدم علمًا قد أوتيه من سواه فأنت منه

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تح/ أحمد الحوفي، بدوي طبانه، جـ ٢، ص٦٣، دار نهضة مصر – القاهرة، بدون تاريخ .
(٢) أصول النقد الأدبي، ص ١٢٠ .

في راحة، وهو رجل عاقل قد حماه عقله أن يعدو طوره، وأن يتكلف ما ليس بأهل له»[١] هذا عن فاقد الذوق.

أما عن صاحب الذوق البلاغي، الذي يمتلك موهبة صُقلت بالتخلية مما سوى ما يثرى الموهبة، والتحلية بما يثري الموهبة، فحاله يقول عنه السكاكي: « ثم إذا كنت ممن ملك الذوق على الطبع، وتصفحت كلام رب العزة أطلعتك على ما يوردك هناك موارد الهزة، وكشفت لنور بصيرتك عن وجه إعجازه القناع، وفصلت لك ما أجمله إيثار أولئك المصاقع على معارضته القراع، فإن ملاك الأمر في علم المعاني هو الذوق السليم والطبع المستقيم، فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم أخر، وإلا لم يحظ بطائل مما تقدم وما تأخر:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة

فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر »[٢]

فشداة الإدراك البلاغي لبلاغة التعابير، المشتغلون بالآداب العالية، وقبلها في المنزلة السامقة الإعجاز القرآني محتاجون لبناء ذوائق بلاغية تمكنهم من بغيتهم.

البلاغة بين مدرستين :

ليست البلاغة ما نقرؤه في كتب المتأخرين من قواعد صارمة، صيغت

(١) دلائل الإعجاز، ص ٥٤٩ .

(٢) مفتاح العلوم، للسكاكي، تح / نعيم زرزور، ص ٣٠١، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الثانية، ١٤٠٧ هـ .

بأسلوب منطقي، فالبلاغة مرّت بمراحل كثيرة، تطورت خلالها، وتلونت بألوان مختلفة، وطبعتها مؤثرات متعددة، مما أسفر عن مدرستين في البلاغة العربية هما: [المدرسة الكلامية] و [المدرسة الذوقية] فدارت البلاغة بين المنطق والتذوق، وأهم ما يميز الثانية الابتعاد عن التحديد والتقسيم وإن وقع لها ذلك فمن غير التعمق، والميل إلى التحليل البلاغي المدرك للأبعاد الدلالية في تعابير جميلة تجمع بين الإمتاع والإقناع.

إن الاختلاف في مزايا كل من المدرستين يرجع إلى طبيعة السمات الذاتية لكل منهما . وهذا الاختلاف لا يؤدي إلى القطيعة بين المدرستين، ولقد جمع عبد القاهر في بلاغته ونقده بين القاعدة والذوق فكان ناقدًا ذا منهج، وبلاغيًا صاحب رأي سديد، ولكن لم يستفد البلاغيون بعده من هذا المنهج الواضح، ومضى السكاكي، وأصحاب مدرسته يلتقطون شواهد عبد القاهر ويضعونها في ديباجة منطقية، تاركين تحليله الدقيق .

ولعل مما يمكن قوله هنا: إن تاريخ البلاغة والنقد يؤكد أن أروع الكتب في هذا الحقل ما امتزج المنطق والذوق فيها، كما ظهر في : [دلائل الإعجاز] و [أسرار البلاغة] و [المثل السائر] فهذه المؤلفات جمعت بين المدرستين، لذلك لا تزال هذه الكتب في الصدارة من التراث البلاغي والنقدي [١] .

(١) ينظر : بحوث بلاغية، د/ أحمد مطلوب، ص ١٣٢ وما بعدها، مطبوعات المجمع العلمي . بغداد، ١٩٩٦م .

مدخل لوسائل بناء الذوق البلاغي :

إن الذوق البلاغي هاد يهدي المبدع إلى روائع الأعمال، كما يهدي الناقد إلى إدراك بلاغة النص، فعلى ضوء الذوق البلاغي يمضي البلاغي إلى مطاوي النصوص فيسبر غورها، ويتسلل إلى أعماقها فإذا وقع على اللآلئ استخرجها ونص عليها، كما أن المبدع الذي امتلك ملكة الذوق البلاغي إذا ما فاضت قريحته بتجربة شعرية أو رسالة أدبية، أو قصة أو غير ذلك من ألوان الفن التعبيري، رأيت جواهر البيان، وبلاغة التراكيب، وبدائع التصاوير ترصع جيد عمله، فالذوق البلاغي أثمر يانع الثمر في أدوح أعماله.

ولاشك أن تنمية الذوق البلاغي أمر لا يمكن تحصيله بمعرفة علم البلاغة فحسب؛ لأن الذوق البلاغي فن فعندما : «يدرس الطالب قواعد البلاغة ومسائلها دراسة نظرية منظمة، يقال : إذن يدرس علم البلاغة، كما يدرس مواضع الفصل والوصل، وقوانين التشبيه والمجاز، وأصول الخطابة والرواية والوصف، فإذا ما أخذ يطبق هذه القواعد تطبيقًا عمليًا بإنشاء الكلام البليغ، قيل إنه يعالج فن البلاغة، كأن يرتجل الخطابة أو يكتب القصة، أو يبدع الوصف، فالعلم هو المعارف الإنسانية في أسلوب منسق، والفن هو هذه المعارف في شكل عملي تطبيقي ... وفيه يكون أثر الذوق »[(١)] .

ففي فن البلاغة يبدو أثر الذوق إبداعًا ونقدًا، والواقع أن «الذوق كان من القضايا التي اهتم بها البلاغيون، وأقاموا عليها أحكامهم، ولا يخلو كتاب بلاغي أو نقدي من الرجوع إليه، أو التحدث عنه، وعقد فصول ضافية عنه،

(١) الأسلوب، أ / أحمد الشايب، ص ٣٠، مكتبة النهضة المصرية، ط الثانية عشرة، ٢٠٠٣ م .

ومن ذلك الفصل الرائع الذي ختم به عبد القاهر كتابه: [دلائل الإعجاز] وقرر أن العمدة في إدراك البلاغة الذوق والإحساس، وأنه لابد من تهذيبه بالوقوف على مواطن الجمال في الأدب، ولن يفهم الأدب ويهتز له من عدم الذوق، وفقد الإحساس والشعور، مهما أوتي من علم البلاغة وقواعدها، ومهما كد ذهنه، وأجهد عقله»(١).

ولأهمية الذوق البلاغي رأينا كتب التراث البلاغي والنقدي تحتفي به، وتنزله المنزلة السامقة يقول ابن الأثير : «واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب، وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذًا، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا – فإن الدربة والإدمان أجدي عليك نفعًا، وأهدى بصرًا وسمعًا، وهما يريانك الخبر عيانًا، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا، وكل جارحة منك قلبًا ولسانًا، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفًا ووضعه في يمينك؛ لتقاتل به ، وليس عليه أن يخلق لك قلبًا، فإن حمل النصال، غير مباشرة القتال»(٢).

فابن الأثير يشير إلى قيمة الذوق السليم فيجعل مدار علم البيان عليه، وابن الأثير واحد من أولئك الذين اعتمدوا على الذوق في إدراك بلاغة النصوص، فعلى الرغم من أنه كان معاصرًا للسكاكي إلا أن واقع نتاجهما البلاغي والنقدي يؤكد أن السكاكي كانت بلاغته تقريرية يغلب عليها المنطق، أما ابن

(١) أساليب بلاغية، د/ أحمد مطلوب، ص ٦٢، وكالة المطبوعات – الكويت، ط الأولى، ١٩٨٠م
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١، ص ٣٥ .

الأثير فنتاجه يؤكد أن الرجل اهتم بالذوق كفن يتكئ عليه الناقد في إدراك بلاغة التعابير.

والمتأمل في التراث النقدي والبلاغي يدرك أن علماءنا أكدوا على: «أن دراسة الشعر وتفقده وتذوقه ومعرفة فنونه وطرائق الشعراء، كل ذلك أصل وأساس في الدراسة البلاغية، لا يقوم شيء منها إلا عليه»[١]، فالتحليل البلاغي يعتمد على القاعدة البلاغية، وقبلها يحتاج إلى ذوق سليم أثقلته المعرفة والرؤية، ومطالعة النصوص عالية البلاغة، فإدراك بلاغة النظم سبيلها الذوق، وإلى هذا أشار الإمام عبد القاهر حيث قال : « اعلمْ أنك لن تَرى عجَبًا أعْجبَ من الذي عليه الناسُ فِي أمرِ النَّظْم، وذلك أنه ما مِن أَحدٍ لهُ أدنى معرفةٍ إلاَّ وهو يَعلمُ أن ههنا نظْمًا أحْسَنَ من نظْمٍ، ثم تراهُمْ إذا أنتَ أردْتَ أن تُبَصِّرَهم ذلك تَسْدَرُ[٢] أعينُهُم، وتضِلُّ عنهم أفهامُهم.

وسببُ ذلك أنهم أول شيء عَدِموا العِلْمَ به نفسَه، من حيث حَسِبوه شيئًا غيرَ تَوخِّي معاني النحو، وجعلوه يَكونُ في الألفاظِ دونَ المعاني. فأنتَ تَلْقى الجَهْد حتى تُمِيلَهم عن رأيهم؛ لأنكَ تُعالِجُ مرَضًا مُزْمنًا، وداءً متمكِّنًا...فليس الداءُ فيه بالهيِّن، ولا هو بحيثُ إذا رُمْتَ العلاجَ منه وجدتَ الإمكانَ فيه مع كلِّ أحدٍ مُسْعِفًا، والسعيَ مُنْجِحًا؛ لأنَّ المزايا التي تحتاجُ أن تُعْلِمَهم مكانَها وتصورَ لهم شأنها، أمور خفيَّة، ومعانٍ رُوحانية، أنتَ لا تستطيعُ أن تُنَبِّه السامِعَ لها، وتحدث له علمًا بها، حتى يكون مهيئًا لإدراكها، وتكون فيه طبيعةٌ قابلةٌ لها، ويكونَ له ذوق وقريحة يَجِدُ لهما في نفسه إحساسًا بأنَّ مِن

(١) خصائص التراكيب . دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص ٩ .
(٢) تتحير.

شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيه المزية على الجملة، ومن إذا تصفَّح الكلامَ وتدبَّر الشعرَ، فرَّقَ بين موقع شيء منها وشيء »[١] .

(١) دلائل الإعجاز، ص٥٤٦ .

المبحث الأول : الموهبـة .

كثيرون أولئك الذين يحاولون امتلاك الذوائق البلاغية، بل ويجتهدون في السير إلى تلكم الغاية، ولكن ليسوا جميعًا بمدركين لتلك الغاية؛ لأن الأمر يحتاج إلى هبة ربانية، وملكة فطرية لم يحظ بها إلا قليلون، ولله در الإمام عبد القاهر، يقول: «والبلاء والداء العياء أن هذا الإحساس قليل في الناس، حتى إنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه في شعر يقوله أو رسالة يكتبها الموقع الحسن، ثم لا يعلم أنه قد أحسن»[١] فالإمام يؤكد على أن الذوق والإحساس بجمال التعابير أمر لا يقف عليه إلا قليل من الناس، وهذا أمر يؤكده الواقع الذي نراه.

فكم من كاتب ترى كتاباته خالية من الذوق البلاغي، مجردة من الملكة الفطرية، فترى اللغة لا تعبر عن مقصده، وترى مفرداته لا تناسب الغرض الذي يتناوله، وتراكيبه فيها من التعقيد ما يخل بفصاحتها إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على ذوق سقيم يشوه البيان، ويقطع السبيل بين المبدع والمتلقي.

والذوق البلاغي هبة من الله – تعالى – فالمرء مهما قرأ وطالع في الآداب بأجناسها المختلفة، في عصورها المتوالية لن يحصّل الذوق إن لم يرزق الموهبة، يقول أبو هلال: «وأول آلات البلاغة جودة القريحة، وطلاقة اللسان. وذلك من فعل الله . تعالى . لا يقدر العبد على اكتسابه لنفسه، واجتلابه لها »[٢] فأبو هلال كما رأينا عبر عن الذوق بالقريحة، وجعل جودة

(١) دلائل الإعجاز، ص ٥٤٩ .
(٢) الصناعتين، ص ٢٠ .

القريحة من أول آلات البلاغة، ورأى أن جودة القريحة هبة من الله . تعالى . وقد ذكر السكاكي أن الذوق فضل إلهي، يقول في سياق حديثه عن الاختلاف في وجه الإعجاز : «فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق، من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك على هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك، فكل ميسر لما خلق له »[١] .

إن أصحاب التذوق البلاغي فتية شادون للأدب والنقد، يتعلقون بما يقرءون من نماذجه، لهم إحساس بالصور المثيرة التي تتلاحق في تضاعيف ما يتاح لهم من أنماطه على نحو يهيج فيهم الحماسة أو الفتور، ويحرك فيهم الرضا والسخط .

وهذا الميل المبكر وليد استعداد نفسي، يؤذن بأن صاحبه على وفاق مع الفن الأدبي، ويشير إلى أن له سجية وفطرة وطبع تعطفه إلى الأدب، وتغريه بالتودد إلى ما فيه من ضروب الجمال [٢] .

إن أولئك الموهوبين الذين منحهم الله – تعالى – القدرة على تذوق النصوص نقدًا أو إبداعًا عليهم أن يبحثوا عن السبل التي تنمي الموهبة، وتمنحها الطاقات التي تصقلها وتقويها؛ فالموهبة لو تركت بلا عناية وصقل ذبل عودها، وجف ماؤها، وانهار بنيانها، وذهبت إلى غير عودة .

(١) مفتاح العلوم، ص ٥١٢، ص٥١٣ .
(٢) ينظر: مذاهب النقد وقضاياه، د/ عبد الرحمن عثمان، ص ٦٦، ٦٧، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م .

وكم من أناسٍ رزقوا هذه الموهبة فأهملوا تنميتها وتقويتها، وانصرفوا في فجاج الحياة بعيدًا عن الآداب والمعارف فضاعت مواهبهم، وتحجرت عواطفهم، وماتت خيالاتهم، وتلاشى بنيان الإبداع والنقد والبلاغة من آمالهم.

وكم من أولئك الذين تنبهوا إلى منحة الله . تعالى . وآنسوا من أنفسهم بلاغة وذوقًا وميلًا نحو الآداب، فهبوا نحو أدواح الأدب، وعوالم الإبداع، ولفائف الشعر والنثر، يطيلون الوقوف على أعتاب التراث، ويطرقون الأبواب حتى صاروا رموزًا للتذوق البلاغي فصارت أقلامهم تفيض إبداعًا وبلاغة، وصارت ألسنتهم تلهج بعقود الجمان، ولآلئ الدرر، وصارت فيوضات أقلامهم وألسنتهم تُروي وتُحفظ وتُدرس وتُورث، إنها خالدة في عوالم الأعمال الباقية .

إن صقل الموهبة ضرورة، و«في عصور الثقافة حيث تزاحم الصنعة الطبع، وتكتنفه فإن الأديب يحتاج عندئذ إلى دراسات اجتماعية؛ ليرهف بها ذوقه على نحو يلائم البيئة، ويواكب حالات المجتمع، وأكاد أعتقد أن ما يحتاج إليه الأديب من دراسات ومعارف لا يصل به إلى درجة التخصص والتعمق في كل نوع من أنواع الثقافة، اللهم إلا إذا كانت هذه الأنواع مما يتصل بالأدب اتصالًا وثيقًا .

فأما الناقد الذي وهب التذوق فلكي يصبح سفيرًا بين الأديب وقرائه، ولكي يحمد له القراء هذه السفارة، فإن عليه أن يتعهد ذوقه بالتهذيب والصقل؛ حتى يتحول إلى أداة ماهرة تؤدي للآخرين ما فهمه الناقد وتذوقه، وتنشر عليهم مطارف الجمال المطوية في تضاعيف النص وإيحاءاته الرامزة.

ولا جدال في أنه لا غنى له في كل هذا الإفصاح عن ثقافة رفيعة متخصصة تعينه في نشاط على ملاحقة الصور الفنية، تلك الصور التي تتعاقب في شفافية وسرعة خلال نماذج الموهوبين»[١].

إن الموهبة في التذوق البلاغي بداية الطريق، إنها بذرة تحتاج إلى من يتعهدها بالرعاية والعناية، تفتقر إلى روافد معرفية وثقافية حتى تستوي قائمة قادرة على النتاج التي يضيف للتراث الإبداعي .

فمما لا شك فيه أن التهذيب والتعليم ينميان الذوق ويهذبانه، ويسموان به نحو معارج الإبداع، إن الأديب ذا الفطرة الذواقة، يفيد من قراءة الأدب ومعالجة الفنون، فتراه بعد وقت من التحصيل مصقول الذوق، ثاقب الذهن، يضع يده على العبارة البليغة، والخيال الجميل، ويدرك صدق العاطفة، وينفر من كل مضطرب من الأدب كاذب، ويكون لتربيته العقلية والعلمية دخل كبير في كمال أحكامه الأدبية واتزانها، كما يكون أقدر على إنشاء الأساليب البليغة، وصوغ الأخيلة الجميلة، وصدق التعبير عن أسمى العواطف وأقواها[٢] .

ومما يؤكد أن صقل الموهبة بالدراسة، ومطالعة الآداب والمعارف أمر له أهميته ما يؤكده واقعنا التراثي، إذ نرى غير واحد من أكابر نقادنا، وأصحاب الأذواق البلاغية والأدبية من أصول غير عربية، ولكنهم استطاعوا عن طريق صقل مواهبهم أن يكونوا رموزًا للإبداع والنقد والبلاغة، فهذا أبو عبيدة معمر

(١) مذاهب النقد وقضاياه، ص ٧٠ .
(٢) ينظر : أصول النقد الأدبي، ص ١٢٢ .

بن المثنى، صاحب: [مجاز القرآن] كان فارسي الأصل[١]، والآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر صاحب: [الموازنة بين أبي تمام والبحتري] كان آمدي الأصل [٢]، والإمام عبد القاهر صاحب [الدلائل والأسرار] كان فارسيًا [٣]، والزمخشري صاحب: [الكشاف] والذي طبق بلاغة الإمام عبد القاهر كان خوارزميًا[٤]، والإمام السكاكي صاحب: [المفتاح] كان خوارزميًا[٥] إلى غير هؤلاء من كبار أهل التذوق البلاغي، والذين لهم قصب السبق في البلاغة علمًا وفنًا وتطبيقًا، وفي هذا ما يؤكد أن الموهبة عندما تصقل بالعلم، ونماذج الإبداع نطالع متذوقي البلاغة الذين يخلد في التاريخ ذكرهم، حتى وإن كانوا من أصول غير عربية .

إن التذوق البلاغي ليس ميراثًا تتوارثه الأجيال جيلاً بعد جيل، إنما هو موهبة وفطرة، ومطالعة للأساليب العالية، والمعارف المختلفة التي تثري الهبة والفطرة، وتمنحهما الحياة.

ولاشك أن من وسائل الاهتمام بموهبة التذوق البلاغي تجنب الأدب الرديء الذي يؤثر سلبًا على ملكة التذوق البلاغي [٦].

إن الأدب الردىء السقيم الذي صنعته نفس غير موهوبة، ولا مزودة بالمعارف والثقافات لاشك أنه يؤثر على قارئه، فالآداب المعتلة مصيرها النسيان والاندثار، إنها لن تبقي، حتى وإن ظلت وقتًا بين يدي الناس .

---

(١) ينظر : تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، الشيخ / أحمد المراغي، ص ٦٣، ط مصطفى الحلبي . القاهرة، ط الأولى، ١٩٥٠ م .
(٢) السابق، ص ٨٧ .
(٣) السابق، ص ١٠٠ .
(٤) السابق، ص ١٠٢ .
(٥) السابق، ص ١١٠ .
(٦) ينظر : أصول النقد الأدبي، ص ١٣٩ .

المبحث الثاني :

إخلاء الذهن، وتفريغ النفس

فالنفس التي تزاحمت عليها أمور تشغلها لن تستطيع اكتساب الذوق البلاغي مهما كابدت ذلك، وبالغت في طلبه، فتخلية النفس ضرورة، وتفريغها مهم؛ لبناء الذوق البلاغي السليم. لأجل ذلك رأينا عبد القاهر يصرح بأن الذوق البلاغي لم يرزقه إلا قليلون يقول الإمام : «والبلاء والداء العياء أن هذا الإحساس قليل في الناس، حتى إنه ليكونُ أن يقع للرجل الشيء من الفروق والوجوه في شعر يقوله، أو رسالة يكتبها، الموقع الحسن، ثم لا يعلم أنه قد أحسن، فأما الجهل بمكان الإساءة فلا تَعدمه، فلست تملك إذًا من أمرك شيئًا حتى تظفر بمن له طبع إذا قدحته وَرِى وقلبٌ إذا أَريته رأى »[١] فهكذا يؤكد الإمام أن أصحاب الأذواق قلة معدودة، فهم أنجم قلائل؛ لأن عملهم لا يدركه إلى الخواص الذين أخلوا أذهانهم من الشواغل، وأقبلوا على المناهل، يتزودون من ينابيعها ما يسهم في بناء ذوائقهم البلاغية .

والمتأمل في كتابي عبد القاهر، وكيفية تحليله لشواهده، يدرك أن الرجل كان مهتمًا بإطالة النظر، وإعمال الفكر والتأمل، بل دعا إلى ذلك وحث عليه، ولا شك أن كل ذلك يحتاج إلى إخلاء الذهن، وتفريغ النفس، وإليك حديثه الذي جاء في سياق توكيده على أن البيان لا يقوم باللفظ وحده، يقول: « فانظر إلى الأشعار التي أَثنوا عليها من جهة الألفاظ، ووصفوها بالسلامة، ونسبوها إلى الدَّماثة، وقالوا: كأنَّها الماءُ جَرَيانًا، والهواءُ لُطفًا، والرياضُ

(١) دلائل الإعجاز، ص ٥٤٩ .

حُسْنًا، وكأنها النَّسِيم، وكأنها الرَّحيقُ مِزاجها التَّسْنِيم، وكأنها الديباج الخُسْرُوانيّ في مَرامي الأبصار... كقوله:

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ

ومَسَّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ

وشُدَّت على دُهْم المهَارَى رِحَالُنا

ولم يَنْظُر الغادي الَّذِي هو رائحُ

أخذْنا بأطراف الأحاديث بَيْنَنا

وسَالَتْ بأعناق المطيِّ الأباطحُ

ثم راجعْ فكرتَك، واشْحَذْ بصيرتَك، وأحسِنِ التأمُّل، ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثم انظر هل تجدُ لاستحسانهم وحَمْدهم وثَنائهم ومَدحهم مُنْصَرَفًا، إلاّ إلى استعارةٍ وقعت موقعَها، وأصابت غَرَضها، أو حُسن ترتيب تكاملَ معه البيانُ حتى وصلَ المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن »[1] إننا أمام ناقد أخلا ذهنه وفرَّغ نفسه، وانقطع لعمل فأحسنه، فذاق حلاوة النص، وأدرك أبعاده الدلالية، ومن ثم راح يدعو شداة الأدب والبلاغة على سبيل من تلك التي تفضي إلى بناء الذوق البلاغي.

هذا، وقد اختلفت أذواق النقاد في الأبيات السابقة فقد سُبق عبدالقاهر بابن قتيبة الذي عرض الأبيات السابقة ثم علق عليها بقوله : "هذه الألفاظ

(١) أسرار البلاغة، أ /محمود محمد شاكر، ص ٢١، مطبعة المدني ـ القاهرة، دار المدني ـ جدة، بدون تاريخ .

كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيّام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح. وهذا الصنف في الشعر كثير"[(١)] فابن قتيبة لا يرى من وراء هذا البيان معنى .

والذي أراه أن ابن قتيبة هنا جاء نقده متعجلًا بلا تأمل وطول معايشة ، ومن ثم لم يسبر غور النص ، ولم يتسلل إلى مطاويه فكان تذوقه مفتقدًا للموضوعية والإنصاف .

والذي أطمئن إليه في تذوق أبيات كثير ما ذهب إليه الناقد الأريب / محمود عباس العقاد إذ يقول : القطعة لا ريب من أعذب الشعر وأسلسه، وهي خلو مما تعوّد النقاد أن يسموه بالمعاني في الشعر ، ولكنا لا نقول مع القائلين إنها طلاوة لفظية ليس إلا، ولسنا نحسب الفضل في استحسانها للحروف والكلمات كما يحسبون ؛ فإن في الشعر شيئًا غير الألفاظ والمعاني الذهنية وهو الصور الخيالية، وما تنطوي عليه من دواعي الشعور .

والقطعة حافلة بتلك الصور التي تتوارد على الخيال، كما تتوارد المناظر على العين في الصور المتحركة ، فيكاد القارئ ينسى كلماتها وحروفها وهو ينشدها ؛ لما يستشفه فيها من الأخيلة المتلاحقة ، وما يصحبها من الخواطر

(١) الشعر والشعراء، لابن قتيبة ، ج١، ص ٦٧، ط دار الحديث . القاهرة ، بدون تاريخ . ١٤٢٣ هـ.

الحية المتساوقة ، ولو أن الأبيات نقلت إلى اللوحة لملأت فراغًا من الشريط المصور لا يملأه أضعافها من قصائد المعاني، وقصص الواقع(١).

وهكذا ندرك أن الأذواق مختلفة باختلاف المعارف والثقافات والأشخاص، وفي الاختلاف ما يثري الحياة النقدية والبلاغية .

(١) ينظر: مراجعات في الآداب والفنون ، للعقاد ، صـ٥٨،٥٩ ، ط هنداوي . القاهرة،٢٠١٣م

المبحث الثالث :

طول مدارسة علوم البلاغة

على الرغم من الأهمية البالغة للذوق البلاغي في الإبداع والنقد إلا أنه لا يمكن القول بالاعتماد على الذوق البلاغي وحده في إدراك بلاغة النصوص وتحليلها؛ بحثًا عن أبعادها الدلالية، وغاياتها في الإمتاع الوجداني، والإقناع العقلي؛ لذا كانت علوم البلاغة بضوابطها عمادًا إلى جوار الذوق في نقد النصوص وتحليلها .

ورغم أن البلاغة أخذت تنحسر في الدراسات الحديثة، وخيل للبعض أن عهدها قد انتهى، وأنه قد جاءت مقاييس جديدة أحسن مما كان العرب يلجأون إليه؛ حتى إذا ظهرت البنيوية، ودخلت الدراسات اللغوية والنقدية، عاد الباحثون إلى البلاغة العربية، واتخذوا عبد القاهر إمامًا، وليست البلاغة مما يُلقى حينًا، ويرجع إليه أحيانًا؛ لأنها فن القول الذي يُقتبس الكلام العذب منه، ويرجع إليه، وكان هذا الفن – ولا يزال – عمدة المفسر، وزاد الأديب، وارتبط منذ نشأته بالإعجاز، وأصبح معلمًا من معالم الثقافة[١] .

ولاشك أن البلاغة تسهم في بناء الذوق البلاغي، بل إن الدارس لأبوابها المختلفة، يصقل ذوقه، فإذا ما حلل نصًا ونقده جاء عمله متسقًا مع الذوق البلاغي العام «فهناك من القواعد الثابتة التي تقررت لدى الذواقين من نقدة الأدب ما لا يترك مجالًا للاختلاف في الاعتداد بها، على أنها أسس مهمة في الحكم على الأعمال الأدبية... واختلاف الأذواق لا ينبغي أن يترك أمره

(١) ينظر : بحوث بلاغية، ص ١٣٢.

في تقييم النصوص الأدبية؛ ليقضي كل ناقد على حسب ما يمليه عليه ذوقه، فإننا حين نسلم بهذا نكون في الوقت نفسه داعين إلى الفوضى، وقبول التناقضات في الفن النقدي، وإنما ينبغي أن نعمد إلى تخفيف حدة هذا الاختلاف الذوقي بقدر ما نستطيع، وليس هناك من سبيل إلا أن نحاكم الأذواق المتنافرة في بعض الأحوال إلى شريعة الذوق العام، الذي انتهت إليه الأذواق السليمة، ذات الدربة الطويلة، والخبرة الأصيلة بطبيعة الفنون وحقيقتها في كل أمة وفي كل عصر »[١] .

فالواقع أن الذوق ليس ضربًا من الفوضى العارمة التي لا تحكمها ضوابط، ولكنه إدراك لمحاسن التعابير، وبدائع التصاوير، وبلاغة التراكيب في إطار حاكمية البلاغة التي هي معايير وضوابط فـ"البلاغة كانت ولا تزال عماد مذهب أصيل من مذاهب النقد الأدبي، وهو المذهب البياني أو المذهب الجمالي، الذي أصبح يطلق عليه في أيامنا : [المنهج الفني في نقد الأدب] وهو أقدم مناهج النقد المعروفة، ويبحث بمقتضاه عن الأسس الفنية التي ينهض عليها الأدب، وتضم شملها الدراسات البلاغية»[٢]، فالنقد يتكئ على البلاغة المعيارية والذوق، والذوق تسهم البلاغة في بنائه، فبين البلاغة والنقد والذوق علاقة وطيدة فـ«الدراسات البلاغية تتمثل فيها خلاصة الأفكار الأدبية، وتتجمع فيها ثمرات الأذهان المستنيرة، وتنسب فيها روافد الأذواق الرفيعة بما أحصته في تجاربها الكثيرة، وخبرتها الطويلة في ممارسة الأدب، وإدامة النظر فيه، وهذه البلاغة ... تشريع للأدب يضع قواعده، ويحدد

(١) مذاهب النقد وقضاياه، ص٤٨ .
(٢) البيان العربي، ص٤٣٧ .

أصوله، ويرسم طريقه ومنهجه»[١] فالبلاغة أمدتها روافد الذوق السليم من خلال الدربة في معايشة النصوص عالية البلاغة، فعلماؤنا الأوائل الذين وضعوا البلاغة، وطوروا معرفتها، ووضعوا قواعدها بعد مطالعة سيل من الشواهد التي استحسنوا بعضها، وجاءت قواعدهم بعد تذوق هذه الشواهد، وبهذا تكون البلاغة قد أُمدت بروافد الذوق السليم .

وبعد أن استقرت علوم البلاغة، وغدت في صورتها التي وصلت إليها من النضج، أضحت هذه البلاغة رافدًا مسهمًا في بناء الذوق السليم. وهذا أمر قرره إمام المتأخرين السكاكي، يقول في سياق حديثه عن إدراك الإعجاز : «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يُدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن تُدرك ولا يمكن وصفها ... ومُدرِك الإعجاز عندي، هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين» [٢] وقال في موضع آخر في سياق حديثه عن الاختلاف في وجه الإعجاز: «فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، ولا طريق لك على هذا الخامس إلا طول خدمة هذين العلمين، بعد فضل إلهي من هبة يهبها بحكمته من يشاء، وهي النفس المستعدة لذلك »[٣] .

إن الذوق البلاغي عندما يُربى في أحضان شريعة الأدب – على حد تعبير د / طبانه – فلا شك أنه لن يضل الطريق؛ إنه ذوق معتدل لا يجنح يمنة أو يسرة، ذوق ينشد الإمتاع والإقناع إبداعًا ونقدًا، ففي الإبداع يكون

(١) البيان العربي، ص٤٣٧ .
(٢) مفتاح العلوم، ص ٤١٦ .
(٣) السابق، ص ٥١٢ .

النتاج الأدبي ثمرة نفس سبر الذوق غورها، وتسلل إلى مطاويها، وتغلغل في أنحائها، فإذا ما فاضت بالأدب جاء أدبها خالدًا هادفًا مصيبًا غايته .

وفي النقد يكون الذوق باحثًا عن الجيد، غير غافل عن الرديء، بعيدًا عن «الأهواء التحكمية، التي لا تصدر في أحكامها عن نظر في العناصر الفنية، وإحساس ...بما فيها من جمال أو قبح »[١] .

إن في الجمع بين الذوق والمعيار البلاغي بُعدًا عن الأهواء التي تحمل من العشوائية والفوضى ما لا يتفق مع غاية البلاغة، إن «الذوق – وهو أداة الجمال كما أن العقل أداة الحق – لا يمكن أن يكون بغير القواعد طريقًا مأمونة إلى عمل من أعمال الأدب»[٢].

هذا، وما كان للذوق أن يُعمل مبضعه في النص منفردًا، بل لابد للذوق من بلاغة تمده بشآبيب الضوابط والمعايير؛ «لأن الذوق استحسان ما يحبه الإنسان ويميل إليه، وهذا غير ما يراد من النقد؛ إذ النقد الصحيح تحليل فكر شخص آخر غير فكر القارئ نفسه، واندماج الإنسان في نفس غيره؛ ليفهمه بفكره، ويدرك عقله بعقله، والذوق تحليل نفس القارئ، وفكره لمناسبة ما يقرأ، وبسبب ما يجده مما هو في نفسه في كلام غيره، إذ شعور القارئ بسروره، ورضاه عما يقرأ هو في الحقيقة ناشئ من أنه وجد ما يحبه، وما يميل إليه، وذلك شيء من خواص نفسه، وميولها الذاتية، فكأنه إنما وجد ما يقرأ نفسه لا نفس الكاتب، وأعجب بميوله وآرائه لا بميول الكاتب وآرائه»[٣] .

---

(١) النقد المنهجي عند العرب، د/ محمد مندور، ص١٠٢، ط نهضة مصر، ١٩٩٦م .
(٢) النص البلاغي في التراث العربي والأوربي، د/ أحمد درويش، ص ١٦٥ ط دار غريب – القاهرة، ١٩٩٨م .
(٣) مقدمة لدراسة بلاغة العرب، د/ أحمد ضيف، ص ٩٢، ط السفور – القاهرة، ط الأولى، ١٩٢١م.

المبحث الرابع :

معايشة النصوص عالية البلاغة

في الصدارة من النصوص عالية البلاغة القرآن الكريم؛ فهو النص المعجز، إنه خارق لعادات الناس في تعابيرهم، إلى جوار أنه كتاب هداية، فهو عين المعجزة وطريق الهداية، فالأمم قبل النبي –صلى الله عليه وسلم – كانت لهم كتب هداية، ومعجزات أخرى، فموسى كتابه التوراة، ومعجزته العصا وهكذا، أما القرآن الكريم فهو معجزة كلامية «بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه ... »[(١)]، ولما كان القرآن الكريم على هذه البلاغة التعبيرية كانت معايشة نصه الشريف تلاوة وسماعًا وحفظًا وتفسيرًا وتأملًا عائدة على صاحبها بذوق بلاغي عالٍ، فمعايش النص القرآني تلمح ذائقته البلاغية سامقة ناضجة، فإذا تكلم فهو الفصيح منطقًا، وإذا عبر عما في خلده أتى كلامه مطابقًا لمقتضى الحال، بل جاءت تعابيره ناهلة من حياض القرآن الزاخر، لقد أثمر القرآن في قوله وقلمه ذوقًا قادرًا على فن التعبير .

إن كتب المفسرين الذين عايشوا النص القرآني جاءت في معظمها تفيض بالبلاغة، وما الكشاف، وروح المعاني، والبحر المحيط، والتفسير الكبير، ومحاسن التأويل، والتحرير والتنوير عنا ببعيد.

وما ظنك بنص نشأت البلاغة؛ لبيان إعجازه، فإمام البلاغة كتب دلائله؛

(١) إعجاز القرآن، للباقلاني، ص ١٣، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، ط الأولى، ١٩٧٨م.

بحثًا عن إعجاز النص الخالد، وغير عبدالقاهر كثر صنعوا مثل ذلك .

لاشك أن معايشة النص القرآني، والعيش في ظلاله صاحبة الأدواح العبقة يعود على الذوق البلاغي للمبدع والناقد بيانع الثمر.

معايشة النص النبوي الشريف :

إن النبي . صلى الله عليه وسلم . لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى فكلامه . صلى الله عليه وسلم . من وحي السماء؛ لذا أتت بلاغة النبي . صلى الله عليه وسلم . عالية صاعدة في سلم البلاغة، والمتأمل في النصوص الشريفة تستوقفه المفردات المختارة بطاقة بلاغية فائقة، كما تشده التراكيب البلاغية الآسرة، إنها «البلاغة الإنسانية، التي سجدت الأفكار لآيتها، وحسرت العقول دون غايتها، لم تُصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يُتكلف لها، وهي على السهولة بعيدة ممنوعة .

ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، مُحكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سُوها وإجادتها مظهر من خواطره »[١] .

ولما كان بيانه الشريف على هذا الشأن العالي كان له من الأثر على ذوق متلقيه ما لا يُنكر .

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للرافعي، ص ١٩٣، ط دار الكتاب العربي . بيروت، ط الثامنة، ٢٠٠٥م.

إن الذائقة البلاغية عندما تنشأ على النصوص النبوية، لاشك أنها تتربى في رحاب نموذج فريد في بلاغته، لقد نظر النقاد على مر العصور في بيانه – صلى الله عليه وسلم– فاستوقفهم بيانه الآثر، وبلاغته الخالدة، ففاضت أقلامهم تسجل آراءهم، يقول الجاحظ عن البيان المحمدي : «هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى : قل يا محمد: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[١] فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام »[٢].

لقد حظي البيان النبوي بدراسات تعاقبت على مدى الأيام، تميط اللثام عن درر البيان النبوي الشريف، ولا تزال تلك الدراسات إلى يومنا هذا تشهد ببلاغته – صلى الله عليه وسلم– فلاشك أن شداة الأذواق البلاغية السليمة القادرة على الإبداع الراقي، والنقد الهادف إذا ما طالعوا درر البيان المحمدي، وأعادوا قراءة السنة قراءة متأملة فاحصة، تسبر الأغوار، وتتسلل للأعماق، سيخرجون بثمين اللآلئ .

ولقد رأى بعض الدارسين : «أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم، فإنا نجد

(١) جزء من الآية رقم : [٨٦]، سورة : [ص] .
(٢) البيان والتبيين، للجاحظ، ج٢، ص١٣، ط دار ومكتبة الهلال . بيروت، ١٤٢٣ هـ .

حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب والأحوص وبشار، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية، وصدرًا من الدولة العباسية في خطبهم، ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة... ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم. والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة »[١]

فصاحب هذا الرأي يُسلم بأن كلام الأدباء علا في سلم البلاغة بعد الإسلام، فالشعر والنثر كلاهما أصبح أبلغ مما روى عن العرب في العصر الجاهلي. ونرى صاحب هذا الرأي يعلل له بقوله : والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث، وعجز البشر عن الإتيان بمثليهما؛ لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة، ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة، وأصفى رونقًا من أولئك، وأرصف مبنىً، وأعدل تثقيفًا بما استفادوا من الكلام العالي الطبقة، وتأمل ذلك يشهد به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والبصر بالبلاغة[٢] .

ومما لا شك فيه أن الأدب الإسلامي أفاد أصحابُه من القرآن والسنة في أذواقهم البلاغية، كما أفاد النقاد أصحاب الدراسات الأدبية كذلك .

وهذا أمر بات مؤكدًا؛ فالإسلام كتابه معجزة وهداية، فكتاب الهداية هو

(١) المقدمة، ص ٧٩٨ .
(٢) ينظر: السابق، ص ٧٩٨ .

عين المعجزة، والمعجزة الخارقة للعادة عندما تكون تحت حس وبصر وبصيرة أبناء العصر لاشك أن النموذج العلوي الفريد الخارج في طاقاته عن طاقات البشر سيكون مؤثرًا عميق الأثر في بيان أبناء جيل الوحي، بل ومن سيأتي بعدهم .

كما أن السنة النبوية التي يربطها بالسماء خيط نوراني، ستصل إليها ومضات الإعجاز، وأنوار الوحي وصدق الله « إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى » [١] .

ولا تزال أنوار الوحي من القرآن والسنة تصل إلى شداة الأدب ونقده فتؤثر في بناء أذواقهم البلاغية، وتثري نتاجهم الأدبي والنقدي، وهذا أمر بات مؤكدًا .

وصقل الذوق البلاغي بمعايشة الآداب العالية أمر لا يمكن لبلاغي أن يتجاهل أهميته، حتى من عرفوا في تاريخ البلاغة بالاهتمام بالمنطق والتقريرية، والبعد عن الذوق كالسكاكي ومدرسته، فعند مطالعتنا لمفتاح العلوم تستوقفنا إشارات تؤكد أن السكاكي لم يهمل الذوق ودوره في إدراك بلاغة الأدب نهائيًا، بل كان يحث على ما من شأنه أن يبني الأذواق البلاغية، فنراه ينص على دور مطالعة النصوص صاحبة الأساليب المستحسنة العالية يقول: «ليس من الواجب في صناعة وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكمات وضعية، واعتبارات إلفية، فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها ... إن فاته

(١) الآيتان : [٤، ٥]، سورة النجم .

الذوق هناك، على أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق، وكان شيخنا الحاتمي . ذلك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار، ما دار الفلك الدوار، تغمده الله برضوانه . يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه فيها على الذوق، ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب، وصبغ بها يده، وعانى فيها، وكده وكده. وها هو الإمام عبد القاهر . قدس الله روحه . في دلائل الإعجاز كم يعيد هذا»[(١)].

فالسكاكي لم يهمل الذوق، وإنما يمكن القول بأن الرجل قرأ بلاغة عبد القاهر واستوعبها، وأدرك من خلالها دور الذوق في إدراك بلاغة الأدب، ولكن السكاكي كان مهتمًا بوضع ضوابط، وقواعد علم البلاغة الذي كان غير محدد المعالم قبل السكاكي، ورغم النقد اللاذع الذي تعرض له السكاكي إلا أن المنصف لا يستطيع أن يتصور البلاغة بدون المفتاح وما أتى بعده من التلخيص وشروحه .

فالسكاكي حدد المصطلحات وتعريفاتها وأقسامها وشواهدها، ولا يعني كل ذلك أن الرجل لم يعرف دور الذوق في إدراك البلاغة، ولكن الرجل – كما أسلفت – كان بصدد رسالة محددة آمن بها، وسعى في بنائها، ويكفي السكاكي أن كتابه سائر إلى اليوم، وذكره طائر، وحوضه مورود، وكتابه دارت حوله دراسات لم تنقطع .

إن الذائقة البلاغية تحتاج إلى بناء، وللبناء أدوات ووسائل، فبناء الذائقة يحتاج إلى قراءة ومدارسة للأدب العالي، الذي يرسِّخ في النفس الملكة، ويشيدها، فالامتزاج والاتصال بخير ما في الأدب من شعر ونثر وقراءة واعية

(١) مفتاح العلوم، ص ١٦٨ .

للأدب، وتحليل لعناصره، وتبيين الصلات بينها، وما فيها من أسباب الصواب والقوة والجمال، وتفهم روح الأديب وشخصيته وعقله؛ ليفيد القارئ منها نفسًا مهذبة تفيض على نفسه جمالًا، وعلى ذوقه صفاء؛ لأن الذوق خُلق من الأخلاق القابلة للتهذيب والتنقيح والعناء بالقراءة والدرس والفهم، بحيث يكون ذوقًا مبنيًا على التجربة مما قرأ الإنسان، وفهم من العلوم والفنون(١).

فبناء الذوق البلاغي ليس أمرًا سهلًا يستطيع الإنسان الوصول إليه بلا عناء إنه ملكة وموهبة، تحتاج إلى صقل وتهذيب وإدراك وتأمل، إنه أمر له علاقة بالنفس الإنسانية، يختلط بها، وينمو في أحضانها، إنه «كيفية للنفس بها تُدرك الخواص والمزايا التي للكلام البليغ ... وهي ناشئة عن تتبع استعمال البلغاء فتحصل لغير العربي بتتبع موارد الاستعمال، والتدبر في الكلام المقطوع ببلوغه غاية البلاغة، فدعوى معرفة الذوق لا تقبل إلا من الخاصة »(٢) فليس كل من طالع كتبًا في البلاغة والأدب يستطيع القول بامتلاك ناصية الذوق، فذلك أمر عُجاب، إن امتلاك ملكة التذوق البلاغي أمر يحتاج إلى صبر ومثابرة، وطول مطالعة وتأمل في كتب الآداب العالية كالمعلقات والحماسات، ونهج البلاغة، ومقامات الحريري، ورسائل الهمذاني " (٣) وغير ذلك من الآداب العالية في تراثنا .

(١) ينظر، مقدمة لدراسة بلاغة العرب، ص ٩٣، وأصول النقد الأدبي، ص ١٣٩ .
(٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ج١، ص ٢١ .
(٣) ينظر :السابق، والجزء الصفحة .

المبحث الخامس :

الإدمـان والدربـة

إن التذوق البلاغي للنصوص يحتاج إلى طول معايشة وإدمان وتكرار؛ لتذوق النصوص، وإدراك جمالياتها، وأبعادها الدلالية، فإن كثرة هذا الفعل تكسب الملكة للمتذوق.

و لفظة: [التذوق] معناها الحقيقي ذوق المحسوس، يُقال : «ذقت الطعام والشراب ذوقًا، وذواقًا، وطعمته طعمًا بالضم ... وفي المثل تَطعَّم تطعم أي: ذق تشته، وطعامٌ مر المذاق، والمذاقة، ومر الطعم بالفتح، والمطعم، وقد وجدت طعمه، ويقال تذوقت الشيء: إذا ذقته مرة بعد مرة»[١] فأصل الوضع اللغوي لمادة: [ذَوَقَ] ذوق المحسوسات باللسان، وإدراك مذاقاتها، ومالها من حلاوة أو مرارة، كما أن أصل الوضع اللغوي للفظ: [تذوقت] ذقت الشيء مرة بعد مرة، فالتكرار مراد في أصل الوضع اللغوي، وتخرج مادة: [ذَوَقَ] في الاستعمالات المجازية إلى دلالات أخرى.

ومن هذه الاستعمالات المجازية استعمال البلاغيين لها في تذوق الأساليب؛ لإدراك جمالها، وأبعادها الدلالية، والبحث في مدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال في الإبداع والنقد[٢]، وعليه فإن التذوق البلاغي معناه فيه معنى التكرار والمعاودة والإدمان، حتى تحصل الدربة والخبرة فمن لم يصنع ذلك فليس بمتذوق؛ إذ إن الدلالة الوضعية للتذوق في كتب اللغة

(١) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، ج١، ص٣٥ .
(٢) ينظر: المقدمة، ٧٧٥ .

تعطي معنى التكرار والعَود، فإن متذوقي الأطعمة والأشربة لا يميزون الحلاوة أو المرارة إلا بعد أن تتكون لديهم خصائص محددة تستقر عندهم، يستطيعون بعدها أن يقيسوا عليها بعد أن تصير لديهم دربة في تذوق الحلاوة بمستوياتها، والمرارة بمستوياتها، فالدربة عندهم لا تنشأ من أول مرة وإنما بعد تكرار الفعل.

واللفظة نفسها :[التذوق] تعطي هذه الدلالة، فإذا نقلنا لفظة: [التذوق] من المحسوسات من مطعومات ومشروبات إلى التذوق البلاغي ندرك أن التذوق البلاغي يحتاج إلى تكرار الفعل، وطول المعايشة، وكثرة الممارسة فإن «الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ... وهذه الملكة ... إنما تحصل بممارسة كلام العرب، وتكرره على السمع، والتفطن لخواص تراكيبه »[(١)] .

ولقد أدرك ابن الأثير أهمية الدربة والممارسة الطويلة للنصوص فعبر عنها بلفظ:[الإدمان] في سياق حديثه عن أهمية الذوق السليم، الذي عليه مدار علم البيان يقول : «واعلم – أيها الناظر في كتابي– أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذا، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا، فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعًا، وأهدى بصرًا وسمعًا، وهما يريانك الخبر عيانًا، ويجعلان عسرك من القول إمكانًا، وكل جارحة منك قلبًا ولسانًا، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما مثلي فيما مهدته لك من هذا الطريق إلا كمن طبع سيفًا ووضعه في يمينك؛ لتقاتل

(١) المقدمة، ص٧٦٤ .

به، وليس عليه أن يخلق لك قلبًا، فإن حمل النصال، غير مباشرة القتال »[١]

وبهذا يؤكد ابن الأثير على أهمية الدربة في بناء الذوق السليم، الذي عليه مدار علم البيان – كما يقول – بل نراه يعبر عن أهمية الخبرة والممارسة للأساليب العالية، والتعابير البليغة بلفظة الإدمان، فلله در ابن الأثير في تعبيره بلفظة:[الإدمان]التي توحي بطول الوقوف في ساحة الأساليب العالية، ومعاودة التأمل في بلاغتها، والإقبال على ذلك بوسائل الإدراك المختلفة، وانشغال الخاطر والوجدان والقلب والعقل بها، وإخلاء الذهن من كل ما سواها؛ تفرغًا لإدراك بلاغتها.

كل هذه المعاني توحي بها لفظة :[الإدمان] التي آثرها ابن الأثير فكانت معبرة تعبيرًا دقيقًا عن ما لطول الدربة والممارسة من أهمية في بناء الذوق السليم الذي عليه مدار علم البيان .

وكثيرًا ما يتعجل شداة الذوق البلاغي مبدعون ونقاد في ادعائهم امتلاك ملكة الذوق البلاغي، ويتزببون قبل أن يتحصرموا، فتأتي أعمالهم مشوهة جافة، فتعابيرهم جامدة، أقرب إلى المنطق والألغاز، تشتكي تعقيدًا لفظيًا ومعنويًا، تزداد غرابة وتنافرًا؛ ذلك لأنهم لم يصبروا عند مرحلة بناء أذواقهم، وتكوين ملكات بما يمكنهم من أن ينزلوا ساحة الإبداع، وواحة النقد، إنهم تعجلوا قطف الثمار، وزعموا أن جعابهم تفيض سهامًا، وهذه آفة العصر التي تجاوزت ملكة التذوق البلاغي إلى كثير من مناحي الحياة.

ولقد أدرك كثير من علماء البلاغة ومتذوقيها أهمية الممارسة والتجربة

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١، ص٣٥ .

في بناء ملكة التذوق البلاغي، من هؤلاء الدكتور/ أحمد ضيف، إذ نراه يعُد الذوق خُلُقًا من الأخلاق القابلة للتهذيب والتنقيح، وذلك بالعناء والقراءة والتجربة يقول : «الذوق يتكون بالقراءة والدرس، ويكتسب شيئًا من اللين والمرونة وقبول الجديد؛ لأن الذوق خلق من الأخلاق القابلة للتهذيب والتنقيح والعناء بالقراءة والدرس والفهم، بحيث يكون ذوقًا مبنيًا على التجربة مما قرأ الإنسان، وفهم من العلوم والفنون. فالذوق الصحيح ينضج ويتربى بالنقد، كما أن النقد يتهذب بالذوق؛ لأنه معين ومساعد على الفهم، وتفضيل الشيء على الشيء»(١).

لقد جعل الدكتور / أحمد ضيف الذوق خلقًا قابلًا للتهذيب والتنقيح، فإذا كان . مثلًا . خلق الحلم بالتحلم فكذلك الذوق بالممارسة التي تثمر دربة، ويوسع د/ أحمد ضيف دائرة الدرس فيدخل فيها علومًا ومعارف وفنون

ومع أن «الذوق ... ملكة ...مردها ... إلى أصالة الطبع، إلا أنها تنمو وتصقل بالمران، وعند ابن سلام الجمحي وعند الآمدي في ذلك صفحات يجب أن نتدبرها. يقول ابن سلام: "قال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك"، فقال له: "إذا أخذت أنت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف: إنه رديء، هل ينفعك استحسانك له؟ " إذن فلكي يصح النقد الذوقي لا بد له من دربة، وفي هذا يقول ابن سلام أيضا: "للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما يثقفه اللسان، من

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب، ص٩٣، ٩٤ .

ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصروه »[١] فالمران يصقل الطبع، ويهذبه ويضيف إليه من خبرات الآخرين ومعارفهم وثقافاتهم .

إن متذوق البلاغة إذا ما توقف عن مطالعة نتاج الآخرين، والانفتاح على كتاباتهم جاء ذوقه البلاغي منعزلًا عن روافد مهمة من الذوق العام التي كان من الممكن أن تصب فيوضاتها في قناة الذوق الذاتي للمتذوق.

إن الأذواق...التي هي وليدة التمرس بحر الأساليب، وصائب المنطق، وتسلسل الفكرة وترابطها، تحتاج إلى نسق خاص من التعبير، وتهش لنمط معين من البيان والتصوير، ولن تجد هذه الأذواق الراسخة صعوبة في الاهتداء إلى بواعث الجمال في كل من النسق التعبيري، والنمط التصويري في النتاج الفني؛ لأنها أوغلت في النفس المبدعة ... وهذه الأذواق المثقفة التي غذتها روافد صافية من ينابيع الآداب العالمية والثقافة الإنسانية، لم تعد أذواقًا شخصية تقوم على ما يحب المرء أو يكره[٢] .

فالمران والممارسة يجعلان الذائق معايشًا لحركة التذوق من حوله، ومن ثم يأتي تذوقه متسقًا مع الذوق العام غير خارج عن سياقه و« كلام البلاغيين ظاهر الدلالة على أن دراسة هذه العلم لا تقوم إلا على ما يجده الدارس في نفسه عند قراءة الشعر والكلام المختار، فإن استحسن الكلام واستعذبه وراقه وكثر عنده نظر؛ ليتعرف على ما في الكلام من صنعة يرجع إليها ما

(١) في الميزان الجديد، د/ محمد مندور، ص ١٣٠ وما بعدها، نهضة مصر للطباعة والنشر التوزيع . القاهرة، ٢٠٠٤م .

(٢) ينظر: مذاهب النقد وقضاياه، ص ٥١، ٥٢ .

وجده في نفسه، وإن استهجن الكلام واسترذله نظر في الكلام؛ ليتعرف على الشيء الذي فيه، والذي صار به مستهجنًا مسترذلًا، وهو حين ينظر؛ ليتعرف على أسباب الحسن أو الاستهجان يكون قد بدأ العمل البلاغي، ويكون قد وضع قدمه على طريق علماء هذا العلم، وشغله حينئذ هو تفقد اللغة والأحوال والصيغ والخصوصيات والصور والرموز، وكل ما يتصل ببنية الشعر واللغة والأدب، ثم إنه لا يقع على هذا الذي وجب به الفضل إلا بمعونة الذوق، وهذا يعني أن هناك مرحلة سابقة للنظر البلاغي، يكون الدارس فيها قد هيأ نفسه وأشربها من بيان اللغة، وجيد الكلام، وأحيا حسها بما أشربها، وأيقظها وشحذها، ونبهها.

وإنما يكون ذلك بتفقد الشعر والنظر في صوره ولغته، والوعي برموزه، وإشاراته، والتدقيق في امتلاك خواطره، وهواجسه، والتقاط سوانحه، والحس بوقعه ورنينه وأضوائه، ولا يكون شيء من ذلك بالقراءة المتساهلة، وإنما يكون ذلك بالصبر والتنظيم والانقطاع.

واعلم أن المادة البلاغية التي هي متون هذا العلم مع فضلها ونفعها، وجلالها لن تفيدك شيئا ما لم تؤسس تناولك لها على هذا الأصل، ما لم تكن قد رضت نفسك على تذوق الشعر وتأمله والحفاوة به، وهذا هو الذي يجعل لعلوم العربية كلها عندك مذاقًا غير مذاقها، وأنت تحفظ أصولها وفروعها وليس عندك هذا الرصيد من الفهم للشعر والمصاحبة له»[١].

فالممارسة والإدمان والمران لكل ذلك دور في بناء ملكة التذوق البلاغي .

(١) خصائص التراكيب . دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص٣ .

المبحث السادس :

الوقوف على الملاحظات النقدية والموازنات

من المركوز أن النقد في الأدب والبلاغة : تمييز الجيد من الرديء من الكلام ، والموزنات لون من ألوان النقد فـ «ليست الموازنة إلا ضربًا من ضروب النقد، يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان، فهي تتطلب قوة في الأدب وبصرًا بمناحي العرب في التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء، في سوق عكاظ؛ إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام »[١] .

فالملاحظات النقدية إما أن تكون على عمل أدبي لأديب واحد، أو لأكثر من أديب، وعندئذ تسمى موازنة .

والواقع أن الملاحظات النقدية في كل أحوالها تسهم في بناء ملكة الذوق البلاغي، كما أن الذوق الأدبي والبلاغي من أدوات الناقد التي لابد أن يتمكن منها، فالعلاقة بين الذوق والنقد قوية متشابكة، بل إن البلاغة تنضم إليهما؛ لأنها شريعة الأدب والنقد[٢].

والحقيقة أن دراسة الملاحظات النقدية التي تحفل بها كتب النقد تثري ملكة التذوق البلاغي، بل إنها تفجر الطاقات الكامنة، وتوسع آفاق مطالعها، ولمطالعة بعض هذه الملاحظات والوقوف على بعض نماذجها ندنو من «باب من أبواب كتاب الكامل للمبرد، وليكن باب التشبيه، يختار المبرد في

(١) الموازنة بين الشعراء، د/ زكي مبارك، ص٧، دار الجيل – بيروت، ط الأولى ١٩٩٣ م .
(٢) ينظر : البيان العربي، ص ٤٣٧ .

هذا الباب خير ما عُرف من التشبيه المصيب الجيد المليح المستظرف عند القدماء والمحدثين، ويُعقِّبُ على كثير مما يورد بالنقد والحكم، وهو يبدأ بشيخ الشعراء الجاهليين، وأحسنهم تشبيهًا : امرئ القيس، فيذكر له البيت :

كأنَّ قلوبَ الطير رطْبًا ويابسًا

لدى وَكرها العُنّابُ الحَشَفُ البالي

ويقول : إن هذا بإجماع الرواة أحسن تشبيه شيء في حالتين بشيئين مختلفين . فإن اعترض معترض فقال: فهلا فعل فقال : كأنه رطبًا العناب، وكأنه يابسًا الحشف ؟ قيل له: العربي الفصيح اللقِن، يرمي بالقول مفهومًا، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عِيًّا .

ثم يقول: ومن تمثيل امرئ القيس العجيب قوله :

إذا ما الثُّريا في السماء تعرضَتْ تعرضَ أثناءِ الوشاحِ المفصَّلِ

وقد أكثر الناس في الثريا، فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ .

ويمضي المبرد على هذا النحو فيورد تشبيهات للنابغة الذبياني و ... وهو في ذلك يشرح روعة التشبيه، وما فيه من جمال فني، وهو لا يكتفي بنقد التشبيه وجودته، والمعنى وابتكاره أو سرقته، بل يتعرض للشعراء أنفسهم، وللمذهب الشعري نفسه ...»[١] .

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، أ/ طه أحمد إبراهيم، ص١١٢، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى، ١٩٨٩م، وينظر : الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣، ص٢٦، دار الفكر العربي . القاهرة، ط الثالثة، ١٩٩٧م .

إن مدارسة أمثال هذه الملاحظات النقدية تربي ملكة التذوق البلاغي لدى شداة الذوق البلاغي العالي، إنها ثمرة معرفة، وانفتاح على نتاج أدبي لشعراء كثر .

ومن الملاحظات النقدية التي تسهم في بناء الذوق البلاغي ما روي عن ابن العميد الكاتب المعروف، وكان بابه مفتوحًا للشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة، وكان من الذين يعرفون الشعر حق معرفته، وينقدونه نقد جهابذته، فلقد أنشد الصاحب بن عباد يومًا بحضرة ابن العميد قصيدة أبي تمام التي منها :

كريم مَتى أمدحْهُ أمدحْهُ والورى

معي، وإذا ما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وحدي

فسأله ابن العميد : ألا تجد في هذا البيت عيبًا؟ قال : بلى، ضعف الطباق بين المدح والذم. قال: لا، إنما عيبه في عدم سلامة الحروف من الثقل، وفي التكرار في :[أمدحه] مع الجمع بين الحاء والهاء، مرتين، وهما من حروف الحلق، وذلك مرزول، خارج عن حد الاعتدال [١].

إننا أمام ملاحظات نقدية تعمقت الشعر، وسبرت غوره، وفهمت طبيعته، ومن ثم أتت ملاحظات نقدية موضوعية ذوات أحكام معللة، جامعة بين الذوق والمعرفة، فلاشك أن أمثال هذه الملاحظات لها دورها في بناء الذوق البلاغي السليم .

إن الإطلاع على الملاحظات النقدية يحقق تلاقح الأفكار، واحتكاك

(١) ينظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب. من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص ١٤٠ .

الآراء، وفي ذلك تربية للذوق، فشداة بناء الأذواق في حاجة ماسة إلى مقابلة أذواقهم بأذواق الصفوة من أهل التأمل والتمييز(١)، ومن أهم الطرق الموصلة لذلك، مطالعة الملاحظات النقدية قديمًا وحديثًا، فالمتذوق عندما ينطلق في عمله التذوقي من قاعدة راسخة كونتها بوتقة انصهرت فيها مطالعة الملاحظات النقدية للآخرين، والمعرفة الذاتية، والملكة الخاصة يأتي نقده وتذوقه على درجة عالية من الموضوعية والذوقية التي يمكن تعليلها وإبراز أسبابها، ومن ثم تجد ثمرات التذوق المشيد على الأسس السابقة مقنعة ممتعة للمتلقين .

ولعل من أهم الملاحظات النقدية التي تسهم في بناء الذوق البلاغي، تلك التي سبيلها الموازنة بين أكثر من نتاج. إنها تطلعنا على سمات كل عمل، كما تضع بين أيدينا ما تميز به هذا العمل عن ذاك، كما أنها تطلعنا على حكم القائم بالموازنة، وهل أتى حكمه عادلًا منصفًا أم جاء مبنيًا على الأهواء الذاتية جائرًا، ولذلك تسهم الموازنات في بناء ملكة التذوق لدى من يدرسها ويتأملها .

وقد حفل تراثنا بالموازنات الكثيرة التي منها ما جاء في أثناء كتب النقد والبلاغة، ومنها ما أفردت له مؤلفات خاصة .

فمن ما جاء في أثناء كتب النقد والبلاغة، ما جاء في دلائل الإعجاز حيث يقول عبد القاهر : « واعلم أنه إنما أُتِيَ القومُ مِنْ قِلَّة نظرهم في الكتب التي وضعها العلماء في اختلافِ العبارتَين على المعنى الواحد، وفي كلامهم في أَخْذ الشاعرِ مِنَ الشاعرِ، وفي أنْ يقولَ الشاعرانِ على الجملةِ في معنى

(١) ينظر : مذاهب النقد وقضاياه، ٧٣ .

واحد، وفي الأَشعارِ التي دوَّنوها في هذا المعنى. ولو أنهم كانوا أخَذُوا أنفُسَهم بالنظرِ في تلك الكتبِ، وتدبَّروا ما فيها حقَّ التدَبُّر، لكان يكونُ ذلك قد أيقظَهم مِن غفْلَتهم، وكشف الغطاء عن أعينهم.

وقد أردتُ أن أكتبَ جملةً من الشِّعْر الذي أنتَ ترى الشاعرَيْن فيه قدْ قالا في معنىً واحدٍ، وهو يَنقَسِمُ قسمين:

قَسمٌ أنتَ ترَى أحدَ الشاعرَين فيه قد أتى بالمعنى غُفْلًا ساذَجًا، وترى الآخَرَ قد أخرجَه في صورةٍ تَروقُ وتُعْجِبُ.

وقسمٌ أنتَ ترى كلَّ واحدٍ من الشاعرَين قد صَنعَ في المعنى وصور.

وأبدأُ بالقسمِ الأول: الذي يكونُ المعنى في أحد البيتين غفلًا، وفي الآخَر مصوَّرًا مَصْنوعًا، ويكونُ ذلك إمَّا لأنَّ متأَخِّرًا قصَّر عن مُتقدِّم، وإمَّا لأنْ هُدِى متأخرٌ لشيءٍ لم يَهْتدِ إليه المتقدِّمُ.

ومثالُ ذلك قول المتنبي:

بئسَ اللَّيالي سَهِدْتُ مِنْ طَرَبي

شَوْقًا إلى مَنْ يَبيتُ يَرْقُدُها

مع قول البحتري:

لَيلٌ يُصَادِفُنِي ومُرْهَفَةَ الحَشَا

ضِدَّيْنِ أَسْهَرُهُ لَهَا وتنامُهُ

وقول البحتري:

وَلو مَلَكتُ زَماعًا ظَل يَجْذِبُني

قَوْدًا لَكَانَ نَدَى كَفَّيكَ مِن عُقُلِي

مع قول المتنبي:

وقَيَّدتُ نَفْسي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً

ومَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تَقَيَّدا»[١]

وهذا غيض من فيض شواهد ساقها الإمام عبد القاهر، فهو يكثر من الشواهد، ويطنب في عرضها يُري المتلقي شاعرين قالا في معنى واحد، ولكن أحدهما أجاد وأبدع؛ حيث أتى بالمعنى في صورة تروق وتُعجب، لقد خرج المعنى مصوَّراً مصنوعاً، بينما خرج الآخر غُفلاً ساذَجًا .

إن تكرار الشواهد بين شاعرين دعوة للموازنة بينهما؛ لإدراك علة الحكم على أحد الشاعرين بأن معناه أتى مصوَّرًا مصنوعًا، والشاعر الآخر أتى معناه غفلًا ساذجًا .

إن الموازنة عندما يدركها المتلقي، ويصل إلى نتائجها لاشك أنها ستسهم في بناء ملكة الذوق البلاغي لديه؛ فقد رأى وأدرك بنفسه تجاور الشاهدين مع الفارق بينهما في البلاغة والبيان .

وكما عقد الإمام قسمًا لما يكون المعنى عند أحد الشاعرين مصوَّرًا مصنوعًا، وعند الآخر غُفلًا ساذَجًا، عقد قسما آخر لما نرى فيه كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصور، يقول: « ذكرُ ما أنتَ ترى فيه في كلِّ واحدٍ من البيتين صنعةً وتصويرًا وأستاذيَّةً على الجملة، فمن ذلك، وهو من النادر، قول لبيد:

واكذِبِ النفسَ إذا حدَّثْتَها

إنَّ صِدْقَ النفسِ يُزري بالأَمَلْ

(١) دلائل الإعجاز، ص ٤٨٩، وما بعدها .

مع قولِ نافعِ بنِ لَقِيط:

وإذا صَدَقتَ النفسَ لم تَترُكْ لها

أَملًا ويأمُلُ ما اشْتَهَى المكذُوبُ

وقولُ رجلٍ من الخوارج أُتيَ به الحجاج في جماعةٍ من أصحاب قَطَرِيّ فقتلَهم، ومنَّ عليه لِيَدٍ كانت عنده، وعاد إلى قطري، فقال له قطري عاود قتال عدو الله الحجاج. فأبى وقال:

أَأُقاتِلُ الحجَّاجَ عَنْ سُلْطانه

بِيدٍ تُقِرُّ بأَنها مَولاتُهُ

ماذا أقولُ إذا وقفتُ إزاءَهُ

في الصفِّ واحتجَّتْ لَهُ فَعَلاتُهُ

وتحدَّثَ الأَقوامُ أنَّ صَنائعًا

غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنْظَلَتْ نَخَلاتُهُ

مع قول أبي تمام:

أُسَرْبِل هُجْرَ القولِ مَنْ لو هَجَوْتُهُ

إذَنْ لهجانى عنهُ معروفهُ عندي»[١]

ثم يعقب الإمام في نهاية موازناته قائلًا : «فإنك ترى عيانًا أن للمعنى في كل واحد من البيتين من جميع ذلك صورة وصفة غير صورته وصفته في البيت الآخر...»[٢] إن الإمام اهتم بالموازنات، وألح من خلالها على فكرته التي يعالجها .

(١) دلائل الإعجاز، ص ٥٠١ وما بعدها .

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٥٠٧ .

ومما لا شك فيه أن مطالعة أمثال هذه الموازنات تثري الذوق البلاغي، وتسهم في إقامته في نفس الدارس .

أما عن الدراسات التي قامت على الموازنة – فحسب . فعلى رأسها دراسة الآمدي، ودراسته قائمة على منهج ورؤية وتعليل، وهذه بلاشك موازنة موضوعية تسهم في بناء الذوق البلاغي السليم، أما تلك الملاحظات الانطباعية التأثرية التي رويت عن العصر الجاهلي، فلا تسهم في بناء ذوق ولا معرفة؛ لأنها لا تعود على قارئها بشيء، منها ما روي أنه « اجتمع رهطٌ من شعراء تميم في مجلس شراب، وهم : الزبرقان بن بدر، والمخبَّل السعدي، بعد مبعث النبي – صلى الله عليه وسلم – وتذاكروا أشعارهم فتحاكموا إلى أول من يطلع عليهم، فطلع عليهم ربيعة بن حذار الأسدي .. قالوا له : أخبرنا أينا أشعر، فقال : أما عمرو فشعره بُرُود يمنية[١] تطوى وتنشر، وأما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزورًا قد نحرت، فأخذ من أطايبها، وخلطه بغير ذلك ... وأما أنت يا مُخَبَّل، فشعرك شهب من الله، يلقيها على من يشاء من عباده، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمَزادة[٢] أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء»[٣] إن أمثال هذه الموازنات الانطباعية التأثرية، التي لا تخضع لمنهج، ولا تنبسق عن رؤية ومعرفة، لا تبني ملكة، ولا تثري فكرًا، ولا تصنع بلاغيًا و ناقدًا .

---

(١) «العَصْبُ : بُرُود يمنية، يُعْصَب غزلها، أي : يُجْمَع ويُشَد ثم يُصْبَغ ويُنسج فيأتي موشيًا؛ لبقاء ما عُصِبَ منه أبيض لم يأخذه صَبْغ ...»، مادة : [عصب] لسان العرب، دار صادر – بيروت، الثالثة، ١٤١٤ هـ.

(٢) « المَزادة : ما جُعل فيه الزاد»، مادة : [زيد] . تاج العروس من جواهر القاموس .

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب . من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، ص ٢٠ .

إنما تُصنع الملكة، وتُبنى الذائقة، بالموازنات المنهجية كتلك التي قام بها الآمدي في كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحتري «وهو كتاب حسن في بابه، طرق بحوثًا كثيرة من صميم البلاغة، قد نقل عبد القاهر بعضًا منها في كتابه أسرار البلاغة ... يقول ابن الأثير في المثل السائر : وما من تأليف في علم البيان إلا وقد تصفحت شينه وزينه، وعلمت غثه وسمينه، فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا كتاب الموازنة لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، وكتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولًا، وأجدى محصولًا»[١] فكتاب الآمدي الموازنة له مكانة سامقة في الدراسات البلاغية والنقدية؛ لأن الآمدي كان موضوعيًا يقدم موازنة ذات منهج، أحكامها معللة، وهذه بلا شك تربى ملكة التذوق البلاغي، تأمل قوله : «لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر، ولكني أوازن بين قصيدتين من شعرهما ... فأقول أيهما أشعر في تلك لقصيدة، وفي ذلك المعنى، ثم احكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علمًا بالجيد والرديء»[٢].

وبمطالعة شيء من موازنات الآمدي ندرك قيمة الاطلاع على الموزانات في إثراء ملكة التذوق البلاغي.

(١) تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ص ٨٨، ٨٩ .

(٢) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، للآمدي، تح، أ / السيد أحمد صقر، ج١، ص ٦، دار المعارف . القاهرة، ط الرابعة، بدون تاريخ .

يوازن الآمدي بين الطائيين في معنى التسليم على الديار فيقول: «قال أبو تمام :

سلِّم على الرَّبع من سلمى بذي سلم

عليه وسم من الأيام والقدم

وهذا ابتداء ليس بالجيد؛ لأنه جاء بالتجنيس في ثلاثة ألفاظ، وإنما يحسن إذا كان بلفظتين، وقد جاء مثله في أشعار الناس، والرديء لا يؤتم به ...وقال البحتري :

ميلوا إلى الديار من ليلى نُحييها

نعم، ونسألها عن بعض أهليها

وهذا البيت رديء؛ لقوله :[نعم] وليس بالمعنى إليها حاجة، جاء بها حشوًا، ومن الحشو ما لا يقبح، و[نعم] ههنا قبيحة...» [(١)] إننا أمام موازنة موضوعية، منهجية، معللة، تستند إلى معارف وملكات .

والذي أراه : أن الآمدي أصاب في تذوقه ؛ فتذوقه يتفق مع ما عليه البلاغة العربية والأساليب العالية.وبهذا نسلم بأن دراسة الملاحظات النقدية والموازنات تسهم في بناء ملكة التذوق البلاغي لدى شداة الذوق البلاغي.

(١) السابق، ج١، ص٤٤١ .

المبحث السابع :

الاهتمام بدراسة العلوم الإنسانية

إن التذوق البلاغي ثمرة تسبقها مقومات شتى، حتى تصير تلك الثمرة يانعة، ومن ذلك الاهتمام بدراسة العلوم الإنسانية من لغة وعلم نفس واجتماع وغير ذلك؛ لأن التذوق البلاغي ميدانه النص الأدبي إبداعًا ونقدًا ، والنص الأدبي الذي تنتجه النفس الإنسانية تؤثر فيه الطبيعة النفسية والحالة المزاجية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بل والموقع الجغرافي والأحداث التاريخية إلى غير ذلك من الأمور التي تبدو ملامحها وأصداؤها في النص. فالنص له وشائج وصلات بكل نواحي الحياة التي يحياها الأديب .

إن النص مرآة الذات بل والمجتمع، وقد استطاع النقاد الوقوف على أبعاد حيوات الشعراء من خلال نتاجهم .

والعلاقة بين الذوق والعلوم الإنسانية علاقة قوية لا يمكن تجاهلها؛ فكل منهما متعلق بنفس الإنسان وآدابه، والعلوم الإنسانية ما كان موضوعها متعلقًا بالإنسان، وعلاقته بالحياة من حيث التأثر بها، أو التأثير فيها، وهذه العلوم في جملتها تفسر للظواهر العامة التي تتصل به اتصالًا مباشرًا أو غير مباشر، وهي بهذه الصلة مرتبطة بالأدب وبلاغته وتذوقه .

إن الأدب ظاهرة خاصة بالإنسان؛ لأنه التعبير الذي يصور الحياة والطبيعة، ويترجم في إفصاح عما دق في النفس الإنسانية من مشاعر وأحاسيس.

إن الناقد المتذوق لبلاغة النصوص يحتاج إلى التدقيق في معرفة علوم النفس، والاجتماع، والتاريخ، والأخلاق، والجمال، وما يجد من علوم تتعلق بالإنسان ونزعاته، حتى يتمكن من سبر غور النص، والتسلل إلى مطاويه، وأسراره، وإذا كانت ثقافة الناقد تحتم عليه أن يكون ذا بصر بالعلوم الإنسانية للاستعانة بها في مهمته النقدية، فإن ذوقه يجب أن يصير رائده في مدى هذه الاستعانة، وطريقة تطبيقها، حتى يتسنى له أن يفسر الفن، ويعلل له، وإلا خرج عن طبيعة مهمته إلى تعقيد وتقنين لا يتفقان وطبيعة عمله المعتمد على التذوق البلاغي والفني إلى حد كبير(١).

إن التذوق البلاغي للنصوص يحتاج بناؤه لدراسة العلوم الإنسانية التي يأتي علم النفس في مقدمتها، فالتذوق ميدانه الأدب «والعلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات؛ لأنه ليس هناك من ينكرها ... إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس »(٢)، فالعلاقة بينهما متشابكة، مما يجعل متذوق بلاغة الأدب محتاج إلى التعمق في دراسة علم النفس المنشئة للأدب، و«لسنا نبعد في القول فندعي أن الأدب أو الفن يمكن تفسيره من جميع جوانبه في ضوء علم النفس، وإنما نستطيع بسهولة أن ندعي أن علم النفس قادر على أن يفسر لنا بعض الجوانب التي ظلت غامضة في الماضي »(٣) .

إن الأديب إذا عانى التجربة وعايشها واختلطت مشاعره بها، وأقبل على اللحظة التي تفيض فيها نفسه بالتجربة فاض أدبه محملًا بأصداء النفس

(١) ينظر : مذاهب النقد وقضاياه، ص ٤٠، ٤١ .
(٢) التفسير النفسي للأدب، ص٥ .
(٣) السابق، ص ١٤ .

الإنسانية بما لها من سمات؛ فإن كانت نفسه حزينة غشيها الهم جاءت تجربة محملة بالحسرات المدوية، وإن كانت نفسه فرحة جاءت فيوضاتها الأدبية في تجربة تسيطر عليها الأفراح من مفردات الفرح والبهجة، بل إن الأوزان تأتي أحيانًا تلائم الحالة النفسية، وفي هذا ما يؤكد لنا أن «الإبداع على اختلاف أنواعه وأشكاله، هو الرحم الذي يحتضن النفس الإنسانية بحالاتها »[١] وعند محاولات التذوق البلاغي للأدب لاشك أننا في حاجة ماسة إلى دراية بعلم النفس.

وهنا يثار سؤال :

أيهما يستفيد من دراسة علم النفس المبدع أم الناقد ؟ سؤال جاءت إجابته في حديث د/عز الدين إسماعيل، عن فائدة علم النفس في الأدب حيث قال : «الفائدة المحققة التي يمكن كسبها من نتائج التحليل النفسي، فائدة يحققها الناقد لا الفنان، وهو يحققها عندما يستفيد من تلك النتائج في إلقاء مزيد من الضوء على العمل الفني، واستكشاف أبعاد التجربة أو التجارب التي يقدمها، وتفسير الدلالات المختلفة التي تكمن وراء الأعمال الفنية»[٢] .

وأخالف د/ عز الدين إسماعيل، الرأي فالذي أراه :

أن دراسة علم النفس تهم المبدع كما تهم الناقد، فليست الإفادة قاصرة على الناقد؛ فإذا كان الناقد يستفيد من دراسة علم النفس؛ للوقوف على أبعاد سمات النفس التي أنتجت النص، وكيف أثرت سمات هذه النفس

(١) المدخل إلى نظرية النقد النفسي، لزين الدين المختاري، ص ٩، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م
(٢) التفسير النفسي للأدب، ص ١٧ .

في الإبداع فخرج على هيئة معينة، فإن دراسة المبدع لعلم النفس تنمي ذوقه البلاغي؛ إذ تهبه الطاقة البلاغية على الإمتاع والإقناع، فإذا كانت الغاية العليا للبلاغة الإمتاع والإقناع، فإن دراسة علم النفس للمبدع منشئ النص تدله على وسائل الإمتاع، ولم لا، والنص الذي ينتجه المبدع يخاطب به آخرين يهمه أن يعرف أحوالهم ونفسيتهم وعوالمهم الداخلية؛ ليأتي كلامه مطابقًا لحالهم.

أليست البلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، أنَّى للمبدع بالمطابقة أو مقاربتها إذا جهل حال مخاطبه، وهل الأولى أن يقف المبدع منشئ النص على حال مخاطبه من الخارج والظاهر، أم الأولى أن يحاول المبدع البليغ أن يتسلل إلى الحال الداخلي للمخاطب؛ ليتعمق عالمه الخاص، وأنَّى له ذلك إذا لم يدرس علم النفس الإنسانية هذا عن الإمتاع.

أما عن الإقناع فإن المبدع البليغ صاحب الذوق البلاغي من أهم أهدافه أن يقنع المخاطب بالفكرة التي يعالجها؛ وهو في سبيل ذلك يحتاج إلى دراسة نفس مخاطبه؛ ليبحث عما يلائمها من تعابير، عساه أن ينجح في قصده، فيقنع مخاطبه بالفكرة التي يطرحها. إن طرفي الإبداع معنىً ولفظ، فالمبدع صاحب الذوق البلاغي هو ذلك الذي يأتي لفظه معبرًا عن المعنى مترجمًا عنه في صورة تأخذ بيد المخاطب نحو الإقناع .

فالذي أطمئن إليه : أن دراسة علم النفس ضرورة لبناء الذوق البلاغي للمبدع والناقد؛ لما أسلفت.

والحقيقة أن العلاقة بين الإبداع وعلم النفس قديمة ليست حديثة

الميلاد، و«الذين يعتقدون بأن الدراسات الأدبية لعملية الإبداع من حيث الجانب النفسي وليدة القرن العشرين على يد رائدها الطبيب النفساني [فرويد]، إنما هو اعتقاد يحتاج إلى تمعن أكثر بإعادة النظر في كثير من الأحكام، ونحن لا ننكر استخدام المصطلحات الجديدة في هذا الشأن، والتي دخلت أدبنا ضمن التأثيرات الغربية، وما تميزت به جهود الباحثين في النقد الأدبي؛ لإبراز مواطن القدرة الإبداعية، وما يكتنف شخصية المبدع من حقائق نفسية ضمن معالمه الشعورية من خلال إنتاجه الإبداعي.

أما أصل الدراسات الأدبية وعلاقتها بالنفس، فهي قديمة في الآداب الإنسانية على وجه العموم، وليس معنى ذلك أن معالم هذه الدراسة كانت تحمل النظريات الحديثة نفسها، وإنما كل ما في الأمر أنها نابعة من تأثير النفس في علم الأدب، إلى أن تقدمت هذه الظاهرة لاحقًا على يد عبد القاهر الجرجاني، الذي حاول من خلال ملاحظاته النفسية أن يعطي وجهًا آخر للدراسات النقدية »[(١)] .

والمتأمل في الفكر البلاغي عند الإمام عبد القاهر يدرك أن الإمام عوَّل على دور النفس الإنسانية في التذوق البلاغي للنصوص، ولذلك شواهد كثيرة، منها ما جاء في سياق حديث الإمام عن أن الألفاظ المفردة لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة، ولا يمكن الحكم عليها وهي بعيدة عن النظم، يقول: « هل تشكُّ إذا فكَّرْت في قولهِ تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود: ٤٤] فتَجلَّى لك منها الإعجازُ، وبَهَرَكَ الذي تَرى وتَسْمَعُ

(١) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، د/ عبد القادر فيدوح، ص ٢٢، دار صفاء للنشر والتوزيع. عمان، ط١، ١٩٩٨ م .

أَنك لم تَجد ما وَجَدْتَ منَ المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يَرجعُ إلى ارتباطِ هذه الكَلِم بعضِها ببعض...

إن شكَكْتَ، فتأملْ: هل ترى لفظة منها بحيثُ لو أُخِذَتْ من بين أَخواتها وأُفردتْ، لأَدَّت من الفصاحة ما تُؤدِّيه وهي في مكانها منَ الآية؟ قُل: "ابلَعي"، واعتبرْها وحْدَها من غيرِ أن تَنْظُرَ إلى ما قَبْلَها وما بعدَها، وكذلك فاعتبرْ سائرَ ما يليها.

وكيفَ بالشكَّ في ذلك، ومعلومٌ أنَّ مبْدَأ العظمةِ في أن نُوديت الأرضُ، ثم أُمرَتْ، ثم في أن كان النداء "بيا" دُوْنَ "أيّ"، نحوُ "يا أيتها الأرضُ"، ثم إضافةِ "الماءِ" إلى "الكافِ"، دونَ أن يقالَ: "ابلعي الماء"، ثم أنْ أُتبعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمرَها كذلك، بما يَخصُّها، ثم أنْ قيل: و {وَغِيضَ الْمَاء}، فجاء الفعلُ على صيغة "فُعِل" الدالَّةِ على أنَّه لم يَغِضْ إلاَّ بأَمر آمرٍ وقُدرةِ قادرٍ، ثم تأكيدُ ذلك وتقريرُه بقولهِ تعالى: {وَقُضِيَ الْأَمْرُ}، ثم ذكرُ ما هو فائدةُ هذه الأمور، وهو: {اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِي}، ثم إضمار "السفينةِ" قَبْل الذكْر، كما هو شرطُ الفخامةِ والدلالةِ على عِظَم الشأن، ثم مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أَفَتَرى لِشيءٍ من هذه الخصائصِ التي تملؤك بالإعجازِ روعةً، وتحضُرُكَ عندَ تصورِها هيبةٌ تُحيطُ بالنفس من أقطارِها تعلُّقًا باللفظ من حيثُ هو صوتٌ مسموعٌ وحروفٌ تَتوالى في النُّطق؟ أم كل ذلك لما بينَ معاني الألفاظِ مِنَ الاتِّساقِ العجيب؟»[1].

إن الإمام عبد القاهر في معرض حديثه عن جانب من جوانب فكرة

(١) دلائل الإعجاز، ص ٤٤، ٤٥ .

النظم– التي هدى إليها – يُقعد قواعدها، ويُرسى أسسها، وفي سبيل ذلك يسوق شواهد، منها شاهد قرآني، ويحلله تحليلاً بلاغيًا دقيقًا معتمدًا في تحليله على القاعدة والتذوق.

أما القاعدة فمن ذلك ما ساقه الإمام من أن الأرض نُوديت ثم أُمرت، كما أن النداء كان [بيا] دون [أي]، نحو يا أيتها الأرض، وإضافة الماء إلى الكاف في قوله تعالى: [ماءك]... إلى غير ذلك من القواعد التي اعتمد عليها الإمام في تحليله للبيان القرآني .

أما عن اعتماد الإمام على الذوق البلاغي الذي أسهمت النفس وطبيعتها في بنائه فذلك يؤكده قول الإمام : « وهل تشكُّ إذا فكَّرْت في قولهِ تعالى: {وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [هود: ٤٤] فتَجلَّى لك منها الإعجازُ، وبَهَرَكَ الذي تَرى وتَسْمَع أَنك لم تَجد ما وَجَدْتَ منَ المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يَرجعُ إلى ارتباطِ هذه الكَلِم بعضِها ببعض»(١).

تأمل تعابير الإمام : [بهرك]، [أنك لم تجد ما وجدت] إن الإبهار والوجدان أمران يدخلان في عمل النفس الإنسانية؛ إذ ليس لهما قاعدة بلاغية تحكم عملهما، وتحدد ملامحهما .

إن الإمام يعول على النفس الإنسانية في إدراك أسرار التعابير وجمالها، وإذا تأملنا قوله بعد ذلك : «أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك

(١) السابق، ص ٤٥ .

بالإعجاز روعة؟ وتُحضرك عند تصورها هيبةً تحيط بالنفس من أقطارها...»[١].

إن الإمام يصرح بأثر النفس في التذوق، ويدعوك للإقرار بما يعتريك ويحضرك عند التأمل في لطائف التعبير من هيبة تحسها بنفسك.

أرأيت، كيف أنزل الإمام النفس منزلة سامقة في إدراك مزايا الكلام. إن النفس تسهم في التذوق البلاغي للنصوص، ومدركة – لا شك – لجماليات الأساليب. وما دامت النفس كذلك فعلى شداة التذوق البلاغي أن يحرصوا على دراسة النفس الإنسانية؛ فهي مسهمة في بناء الذوق البلاغي الذي يمد المبدع، كما يمد الناقد برافد ذوقي لابد منه، وإلا أتى العمل جافًا ساذجًا يفتقد أهم أسباب بقائه.

ومن الشواهد التي تؤكد أهمية دراسة النفس الإنسانية لبناء التذوق البلاغي، ما جاء في سياق حديث الإمام عن أن المفردة لا يُحكم عليها قبل أن توضع في نظم كلام ، يقول : « وممَّا يَشهد لذلك أَنَّك تَرى الكلمةَ تروقُك وتُؤنسك في موضعٍ، ثم تَراها بعينِها تَثْقُلُ عليكَ وتُوحِشُك في موضعٍ آخرَ، كلفظِ: [الأَخدع] في بيت الحماسة:

تلفَّتُّ نَحْو الحَيَّ حَتّى وجدْتُني

وجِعْتُ من الإصغاء لِيتًا وأَخدَعا

وبيت البحتري:

(١) دلائل الإعجاز، ص ٤٦ .

وإني وإنْ بَلَّغتَني شرَفَ الغِنى

وأَعتقْتَ مِنْ رِقِّ المَطامع أَخْدَعِي

فإنَّ لها في هذين المكانَين ما لا يَخْفى مِن الحُسْن، ثم إنّكَ تتأَملها في بيت أبي تمام:

يا دَهْرُ قوِّمْ مِن أخْدَعَيْكَ فقدْ

أضْجَجْتَ هذا الأنامَ مِن خُرُقِكْ

فتَجدُ لها من الثقل على النفس، ومن التبغيص والتكْدير أضعافَ ما وجدتَ هناك منَ الرَّوْح والخفة، ومن الإيناس والبهجة.» [١] فالإمام يريك اللفظة في نظمين؛ ليريك أنها تروقك في موضع، وتثقل عليك في آخر، بل تؤنسك في موضع، وتوحشك في آخر، وتأمل تعابير الإمام في دعوته لإدراك جماليات اللفظة في التركيب يقول : [تروقك – تؤنسك – الروح – الخفة – الإيناس – البهجة] ويقول : [تثقل – توحشك – التبغيض – التكدير] ويقول : [فتجد لها من الثقل على النفس ...] إننا أمام تفسير نفسي يسهم في تحليل بلاغي ، بل إننا أمام تعابير معبرة عن النفس وحالاتها، مما يدلنا على أن الإمام عبد القاهر تنبه لدور النفس في التذوق البلاغي للنصوص. وما دام الأمر على هذا الشأن فذائقو البلاغة محتاجون – بلا شك – لدراسة النفس الإنسانية عساهم أن يدركوا أسرار التعابير؛ ليصلوا إلى أبعادها الدلالية .

إن النصوص السابقة التي اقتطفتها من دلائل الإعجاز وغيرها، مما ضاق المقام عن ذكره، تؤكد أن «موضع عبد القاهر ... في طليعة النقاد العرب؛

(١) دلائل الإعجاز، ص ٤٦، ٤٧ .

لأن نقده يطوف بأكثر جهات الفن الأدبي كما يبدو...ويتسم نقده بالموضوعية في ذلك التحليل المستقصي الذي يتناول فيه الكليات والجزئيات، ويستثير مكامن الشعور، ويحرك الذوق، والحاسة الفنية، ويبحث عن الآثار النفسية في الأعمال الأدبية، ومواطن الإبداع في الاستعمال اللغوي، وفي نظم الأساليب مع الاستعانة بمعارفه اللغوية والنحوية وشوبهما بالمنطق والذوق»[١].

إن المتذوق عندما يترك دراسة النفس الإنسانية يغلق أمام نفسه بابًا لإدراك بلاغة النص، فإن كان متكلمًا جهل طبيعة مخاطبه، ومتلقي أدبه، إنه لا يدري حال المخاطَب حتى يأتي الخطاب مطابقًا لمقتضى حاله، إنه سيسير في أرض مجهل بلا معالم ولا هدى، فالمخاطَب صار متواريًا عن المبدع غائبًا عن حسه وبصره ووجدانه وعقله، لقد تقطعت الأسباب بينه وبين مخاطَبه .

وإن كان ناقدًا تاركًا لدراسة النفس الإنسانية جهل حال المبدع ، وطبائعه النفسية. لذلك كانت الدراسات الإنسانية، وفي الصدارة منها علم النفس الإنسانية ضرورة لبناء الذوق البلاغي .

(١) البيان العربي، ص ٢٦٢ .

الخاتمــة

وتضم أهم النتائج التي وقفت الدراسة عليها:

- أول مدارج بناء الذائقة البلاغية هبة ربانية، وعطية إلهية لم يحظ بنوالها إلا قليلون، ولله در الإمام عبد القاهر، يقول : " والبلاء والداء العياء أن هذا الإحساس قليلٌ في الناس ..."(١)
- موهبة الذوق البلاغي لا تكفي وحدها لإدراك بلاغة التعابير، فاتكاء المتذوق على موهبته فحسب ينتج حكمًا انطباعيًا تأثريًا يفتقر إلى الموضوعية والتعليل لأحكامه . ومن ثم فصاحب الموهبة يحتاج إلى صقلها بمعرفة علم البلاغة.
- لفظة:[الذوق] يدور معناها حول إدراك طعم الأطعمة والأشربة، ويتسع المعنى بالتجوز ليشمل ما يدرك بغير اللسان كالبأس والعُسيلة، وكما يكون الذوق في المحسوسات يكون –كذلك – في غيرها كتذوق معرفة الله – تعالى – وتذوق الشعر، والذوق طبع وفطرة، ولفظة : التذوق تعطي معنى التكرار مرة بعد مرة .
- عُبر عن الذوق في كتب النقد والبلاغة بالطبع والملكة والقريحة.
- تفصل خيوط دقيقة بين دلالتي الذوق الأدبي والذوق البلاغي، فالأدب رحم تصل بينهما، ووشيجة تربطهما، فالذوقان الأدبي والبلاغي يسهم الأدب العالي في بنائهما، كما أن الذوقين ميدانهما التطبيقي الأدب .

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ٥٤٩.

- يمكنني تعريف الذوق البلاغي بأنه : موهبة يُؤتاها قليل من الناس، تصير ملكة بإخلاء الذهن، وانشغاله بصقل الموهبة بما يبني الذوق البلاغي .
- إن أولئك الموهوبين الذين منحهم الله – تعالى – القدرة على تذوق النصوص نقدًا أو إبداعًا عليهم أن يبحثوا عن السبل التي تنمي الموهبة، وتمنحها الطاقات التي تصقلها وتقويها؛ فالموهبة لو تركت بلا عناية وصقل، ذبل عودها، وجف ماؤها، وانهار بنيانها، وذهبت إلى غير عودة .
- من وسائل الاهتمام بموهبة التذوق البلاغي تجنب الأدب الرديء، الذي يؤثر سلبًا على ملكة التذوق البلاغي .
- إن التذوق البلاغي ليس ميراثًا تتوارثه الأجيال، جيلًا بعد جيل، إنما هو موهبة وفطرة، ومطالعة للأساليب العالية، والمعارف المختلفة التي تثري الهبة والفطرة، وتمنحهما الحياة.
- مما يؤكد أن صقل الموهبة بالدراسة، ومطالعة الآداب والمعارف أمر له أهميته، ما يؤكده واقعنا التراثي، إذ نرى غير واحد من أكابر نقادنا، وأصحاب الأذواق البلاغية والأدبية من أصول غير عربية، ولكنهم استطاعوا عن طريق صقل مواهبهم أن يكونوا رموزًا للإبداع والنقد والبلاغة.
- النفس التي تزاحمت عليها أمور تشغلها لن تستطيع اكتساب الذوق البلاغي مهما كابدت ذلك، وبالغت في طلبه، فتخلية النفس ضرورة، وتفريغها مهم؛ لبناء الذوق البلاغي السليم .

- الذوق ليس ضربًا من الفوضى العارمة التي لا تحكمها ضوابط، ولكنه إدراك لمحاسن التعابير، وبدائع التصاوير، وبلاغة التراكيب في إطار حاكمية البلاغة التي هي معايير وضوابط.
- إن الذوق البلاغي عندما يربى في أحضان شريعة الأدب – على حد تعبير د / طبانه . فلا شك أنه لن يضل الطريق؛ إنه ذوق معتدل لا يجنح يمنة أو يسرة، ذوق ينشد الإمتاع والإقناع إبداعًا ونقدًا.
- إن الذائقة البلاغية عندما تنشأ على النصوص القرآنية والنبوية لاشك أنها تتربى في رحاب نموذج فريد في بلاغته.
- صقل الذوق البلاغي بمعايشة الآداب العالية أمر لا يمكن لبلاغي أن يتجاهل أهميته، حتى ممن عرفوا في تاريخ البلاغة بالاهتمام بالمنطق والتقريرية والبعد عن الذوق كالسكاكي ومدرسته.
- بناء الذوق البلاغي ليس أمرًا سهلًا يستطيع الإنسان الوصول إليه بلا عناء؛ إنه ملكة وموهبة، تحتاج إلى صقل وتهذيب وإدراك وتأمل، إنه أمر له علاقة بالنفس الإنسانية، يختلط بها، وينمو في أحضانها.
- إن التذوق البلاغي للنصوص يحتاج إلى طول معايشة وإدمان وتكرار، لتذوق النصوص، وإدراك جمالياتها، وأبعادها الدلالية، فإن كثرة هذا الفعل تكسب الملكة للمتذوق.
- الذوق خُلُق من الأخلاق القابلة للتهذيب والتنقيح، وذلك بالعناء والقراءة والتجربة.
- إن متذوق البلاغة إذا ما توقف عن مطالعة نتاج الآخرين، والانفتاح على كتاباتهم جاء ذوقه البلاغي منعزلًا عن روافد مهمة من الذوق

العام التي كان من الممكن أن تصب فيوضاتها في قناة الذوق الذاتي للمتذوق.

- والحقيقة أن دراسة الملاحظات النقدية التي تحفل بها كتب النقد تثري ملكة التذوق البلاغي، بل إنها تفجر الطاقات الكامنة، وتوسع آفاق مُطالعها.
- ولعل من أهم الملاحظات النقدية التي تسهم في بناء الذوق البلاغي، تلك التي سبيلها الموازنة بين أكثر من نتاج؛ إنها تطلعنا على سمات كل عمل، كما تضع بين أيدينا ما تميز به هذا العمل عن ذاك.
- إن الناقد المتذوق لبلاغة النصوص، يحتاج إلى التدقيق في معرفة علوم النفس، والاجتماع، والتاريخ، والأخلاق، والجمال...

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، د/ عبد القادر فيدوح ، دار صفاء للنشر والتوزيع . عمان ، ط١ ، ١٩٩٨ م .
٢. أساس البلاغة ، للزمخشري ، تح/ محمد باسل ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الأولى، ١٩٩٨م .
٣. أساليب بلاغية ، د/ أحمد مطلوب ، وكالة المطبوعات – الكويت ، ط الأولى ، ١٩٨٠م .
٤. أسرار البلاغة ، أ /محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني . القاهرة، دار المدني . جدة ، بدون تاريخ .
٥. الأسلوب ، أ / أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط الثانية عشرة ، ٢٠٠٣ م .
٦. أصول النقد الأدبي ، أ / أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ، ط العاشرة ، ١٩٩٤ م .
٧. إعجاز القرآن ، للباقلاني ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ، ط الأولى ، ١٩٧٨م.
٨. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للرافعي ، ط دار الكتاب العربي . بيروت ، ط الثامنة ، ٢٠٠٥م.
٩. بحوث بلاغية ، د/ أحمد مطلوب ، مطبوعات المجمع العلمي . بغداد ، ١٩٩٦م .
١٠. البيان العربي ، د/ بدوي طبانه ، مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ، ط السادسة ١٩٧٦ م .
١١. البيان والتبيين ، للجاحظ ، ط دار ومكتبة الهلال . بيروت ، ١٤٢٣ هـ .

١٢. تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، دار الهداية ، بدون تاريخ .
١٣. تاريخ النقد الأدبي عند العرب . من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، أ/ طه أحمد إبراهيم ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الأولى، ١٩٨٩م
١٤. تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ، الشيخ / أحمد المراغي ، ط مصطفى الحلبي . القاهرة ، ط الأولى ، ١٩٥٠ م.
١٥. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس ١٩٨٤م
١٦. التعريفات ، للجرجاني ، دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى، ١٩٨٣م .
١٧. تهذيب اللغة ، للأزهري ، تح/ محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي . بيروت ، ط الأولى ، ٢٠٠١ م.
١٨. الحيوان ، للجاحظ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط الثانية، ١٤٢٤ هـ .
١٩. خصائص التراكيب . دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة . القاهرة ، ط السابعة، بدون تاريخ .
٢٠. دلائل الإعجاز ، للإمام / عبدالقاهر الجرجاني ، تح / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني . القاهرة – دار المدني . جدة ، ط الثالثة ، ١٤١٣هـ.
٢١. الصناعتين ، للعسكري ، تح / علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية – بيروت ،١٤١٩ هـ .
٢٢. في الميزان الجديد ، د/ محمد مندور ، نهضة مصر للطباعة والنشر التوزيع . القاهرة ، ٢٠٠٤م .

٢٣. الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي . القاهرة ، ط الثالثة، ١٩٩٧م .
٢٤. لسان العرب ، دار صادر – بيروت ، الثالثة ، ١٤١٤ هـ.
٢٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، تح/ أحمد الحوفي ، بدوي طبانه ، دار نهضة مصر – القاهرة ، بدون تاريخ .
٢٦. المدخل إلى نظرية النقد النفسي ، لزين الدين المختاري ، اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٨م .
٢٧. مذاهب النقد وقضاياه ، د/ عبد الرحمن عثمان ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م .
٢٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للفيومي ، المكتبة العلمية– بيروت ، بدون تاريخ.
٢٩. مفتاح العلوم ، للسكاكي ، تح / نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الثانية ، ١٤٠٧ هـ .
٣٠. المقدمة ، لابن خلدون ، تح / خليل شحادة ، دار الفكر . بيروت ، ط الثانية ، ١٩٨٨ م.
٣١. منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، لحازم القرطاجني ، تح/ محمد الحبيب الخوجة ، دار الغرب الإسلامي . بيروت ، ط الثالثة ، ١٩٨٦م.
٣٢. الموازنة بين الشعراء ، د/ زكي مبارك ، دار الجيل – بيروت ، ط الأولى ١٩٩٣ م .
٣٣. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، للآمدي ، تح ، أ / السيد أحمد صقر ، دار المعارف . القاهرة ، ط الرابعة ، بدون تاريخ .
٣٤. نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد ، لليازجي ، مطبعة المعارف – مصر ، ١٩٠٥م .
٣٥. النص البلاغي في التراث العربي والأوربي ، د/ أحمد درويش ، ط دار غريب – القاهرة، ١٩٩٨م .

٣٦. النظرات ، للمنفلوطي ، دار الآفاق الجديدة ، ط الأولى، ١٩٨٢م .

٣٧. النقد المنهجي عند العرب ، د/ محمد مندور ، ط نهضة مصر ، ١٩٩٦م.